تقديم

حين قامت النهضة العربية الحديثة رافقتها ومهدت لها حركة احياء اللغة العربية ، وبعث التراث ، والعناية بكتابة التاريخ . كان استلهام التاريخ العربي ، والتمسك بالعربية المبينة ، والاستمداد من تراث الأجداد من خير ماتزودت به الاجيال العربية في نضالها البطولي للخلاص مما تعاني من تحكّم الاستعمار ، ومساوىء التجزئة ، ونعرات الاقليمية ، ونزغات العصبية ، وفي ثورتها وتطلعها لبناء المستقبل العربي المشرق تظلّله رايات التحرر والوحدة والعدل والتقدم والسلام . لقد أيقظت العربية والتاريخ والتراث مشاعر القومية الاصيلة ، ووحّدت النفوس ، وحفزت الهمم ، وأجّجت الحماسة ، ووطّدت معالم الشخصية العربية ، وكشفت عما قدمته الامة العربية المجيدة في ماضيها الزاهر من مشاركة جليلة بنّاءة في حضارة الانسان وتقدمه ، وفي ترسيخ قيمه الاخلاقية .

ونقف اليوم ، ولا بد لنا من هذه الوقفة الواعية المتبصّرة التي تضافرت دواعيها وتلاقت أسبابها ، امام هذه الاعمال والمصنّفات الكثيرة التي تم انجازها في ميدان التاليف التاريخي ، خلال هذه المرحلة الهامة ، فيقودنا النظر ثم ترديد النظر في تقويم هذا الجهد الفني الخصب الى ضرورة البدء بمرحلة جديدة نتوفر فيها على كتابة تاريخ الامة العربية ، على هَدْي منهج تاريخي سليم ، مستمد مما كسبناه من التجربة الجادة في مضمار التاليف التاريخي ، وما واتتنا به الخبرة والمعاناة

العربية في دروب العمل القومي من نظرة متفحصة ، قادرة على الرؤية العميقة الشاملة ، تعين على فهم الماضي العربي ، كما كان ، وتهدي الى تصور احداثه وقد تمشّى في مفاصلها نسغ الحياة ، مسترشدين في تقعيد هذا المنهج بحصيلة ماتوصل اليه التفكير التاريخي العالمي ، وما انتهت اليه جهود العلماء المتخصصين .

ـ من الحق ان التجربة العربية الماضية في كتابة التاريخ قد استطاعت التفلت من إسار المنهج القديم الذي سيطر على الاذهان في مرحلة الجمود والتراخي ، لتنطلق الى رحاب التأليف المتكىء على معطيات المنهج التاريخي النقدي الحديث ، وحظيت المكتبة العربية بكتب رائدة في هذا المجال . ولكن التجربة العربية لم يتح لها ان تنمو وتتسع وتبلغ مداها المقدر لها . لقد شابها وخالطها ، وهي في طريقها الى كتابة التاريخ العربي ، ضروب من الضعف ، والوان من الخطأ ، مردها الى مااعتور المجتمع العربي في هذه الفترة من تيارات متباينة داخلية وخارجية ، غريبة على طبيعته ، مما صبغ التأليف باصباغ شتى تنافي الموضوعية التاريخية ، يمتد بعض منها الى الدراسات الاستشراقية التي تفاوتت في مقاصدها وغاياتها ، وفي مقدرة اصحابها على تبين الحقائق التاريخية العربية بكل ملابساتها الداخلية المعينة على تفهمها ، ويمتد بعض منها الى النزعات الاقليمية والاتجاهات التقليدية التي كانت تتحرك ضمن الوطن العربي لتجلو الحقائق التاريخية طبق منطلقاتها وعقائدها . دع عنك ضلال المنهج النقدي وغياب الحس التاريخي لدى كثيرين اقتحموا هذا الميدان ولم يكونوا مؤهلين له ، فغامت عليهم صورة الحقيقة ، وحادوا في عملهم عن الجادة ، فكانوا اسرى النظرات القديمة حينا ، والافكار المصنوعة حينا آخر .

ـ ان منطلقنا اليوم في كتابة التاريخ العربي يعتمد :

١ ـ الحرص على الحقيقة التاريخية ، وتوفير جميع العناصر والوسائل التي تؤدي الى استكناهها .

لقد تقدمت صناعة التاريخ في العالم ، بفضل الجهود الكبيرة التي شارك فيهـا علماء التاريخ والفلسفة ورجال الفكر ، واصبح المؤرخ اليوم ذو الموهبة والحس التاريخي اليقظ ، وبفضل ما اتيح له من وسائـل معينة ، اكثر قدرة على استعادة الماضي واستنطاقه ، والتعرف الى حقيقته ، ثم تصويره التصوير الحي ، وتبيين التيارات الفاعلة المؤثرةفيه.

ان امتلاك هذه النظرة الناقدة البصيرة التي تجمع بين الاصالـة والدقـة والتجرد الصارم والحس التاريخي والمعاناة الحية وصحـة الحكم في عرض تاريخنا العربي ، وتحليل التيارات التي حركته ، والكشف عن المؤثرات المتشابكة الداخليـة والخارجية التي خالطت نسيجـه ، وبيان مواطن القوة والضعف ، البطولة والتخاذل ، الابـداع والتقليـد (عن طريق وصف الواقع وصفا صادقا) ترتفع بصناعة التاريخ الـى المستوى الذي تتشوف له الاجيال العربيـة في قراءة تاريخهـا ، يتلألأ بنور الحق ، وبنور الحق وحده .

٢ ــ وحدة الامة العربية :

وهي الحقيقة الراسخة الهادية التي لابد للمؤرخ من ان يستنير بها في عمله ، وهي وسيلته في تفسير هذه الوحـدة الثقافية والحضاريـة الحيـة العميقة التي ربطت بين ابناء الوطن العربي . لقد ثبتت هـذه الوحدة على مر العصور ، ولم تفلح كل المحاولات لتفكيكهـا ، وتحطمت على صخرتها الصلبة كل الهجمات العدوانية التي رامت فصمها . ولن نذهب في تأييد راينا الى استنطاق الماضي البعيد ، وما اكثر الشواهد فيه على صحة ماقلنا ، بل يكفي ان نستعرض الهجمة الشرسـة التي شنّها الاستعمار على الارض العربية منذ القرن التاسع عشر ، وان نتبين مختلف المؤامرات الحاقدة التي حاكها في الظلام ، وشتى الدعوات المضللة التي نفثهـا انصاره ، ليحول بين العرب وبين الوحدة هدفهم وغايتهم لتتضح لنـا الحقيقة ناصعة . ويوم يقدر للقلم العربي ان يتحرك في هـذا الاطار ليروي قصة الاستعمار في الارض العربية ، وما اقترفه من

جرائم ، ويتحدث عن اساليبه الماكرة ، ومبتكراته الشيطانيــة التي اصطنعها وروج لها ليفسد على العرب وحدتهم ، ويضللهم عنها ، ويشوه معالم الثقافة والحضارة العربيــة ليجعلها ثقافات وحضارات اقليميــة متناكرة ، يوم يتم ذلك تتراءى تلك الملحمــة العربية البطوليــة التي خاضتها جماهيرنا العربية في شتى اقطارها خوض الاستبسال ، السنين تلو السنين ، مقدمة التضحيات اثر التضحيات ، حتى تمكنت من ان تفسد على الاستعمار القبيح خططه المبيتة المنكرة ، وتدحر هجمتــه وعدوانه ، ويسلم لها ايمانها العميق الاصيل الصادق بوحدتها اي بحقيقتها .

٣ ــ الرؤية العميقة الشاملة المتوازنة :

وهو أمر يتصل بالمبدأين السابقين ، ويأتي تبعا لهما . اننا لا يصح ان ندرس الجزئيات دراسة تفضي بنا الى التخفف من النظرة الشاملة لتاريخ الامة العربية ، ويذهب بنا التعمق في النقطة الواحدة ، ومقدرتنا علــى التفصيل فيها المذهب الذي يمنحهامن القوة والتأثير اكثر ممالها من نصيب في مجرى التاريخ . يجب ان يظل نصب أعيننا مجمل التاريخ العربي بكل عصوره وبكل اتساعه ، وان نعالج موضوعاته المختلفة المعالجة التي تنبثق دوما من هذا الاحساس ، حتى لانقع في ضلال النظرة الجزئية ، ونخطىء في تقدير الموضع الذي يحتله عملنا داخل الاطار العام .

ــ وبعد ، فما أشد حاجتنا اليوم ، الى انجاز كتابة تاريخ الامــة العربية ، على هدي منهج تاريخي نقدي سليم ، يعكس تشوفنا ، ويلبي نزوعنا ، تحشد له ، وتتعاون في اعداده الطاقات العربية الكفيّة القادرة في ارجاء الوطن العربي .

ان كتابة مثل هذا التاريخ الذي تتزين صفحاته بنبرة الصدق ، تصوغه أيدي مؤرخين مبدعين ، يحسنون استنطاق التاريخ ، وتتاح لهم رؤية الماضي رؤية حية ، ورزقوا موهبة التعبير الدقيق الفطن ، هو عمل من أجل الاعمال التي يجب ان نضطلع بها ، وان نتطلع جميعا الى انجازها على خير الوجوه واكفاها .

انها اولا تخدم الحقيقة التاريخية الخالصة ، وهو امر له شأنه وخطره ، ويجب ان نسعى له ونجهد لتحقيقه . وهي ايضا فيما نراه الطريق الاكثر جدوى في حفز الاجيال العربية الى العمل والابداع ، وهي هي التي تنمي ، بصدقها ونزاهتها ، روح المجاهدة والدأب لدى الاجيال العربية في سبيل الاحسن والارقى ، في سبيل تثبيت القيم الانسانية الخالدة ، قيم العدل والخير والمحبة ... اما التاريخ الذي يكتب بروح تجانب الواقع وتجافي الحق ، وتؤثر المبالغة في التمجيد والاطراء وتغضي عن المساوىء والهنات ، فانه يكون التاريخ العبء ، التاريخ الذي تنوء الاجيال بحمله ، وترزح تحت وقره .

ـ مثل هذه المعاني واشباه لها بشأن كتابة تاريخ الامة العربية كانت تساور المختصين والمهتمين بتاريخ العرب وهي التي دعت الى تشكيل لجنة تحضيرية بدمشق ، قامت بعد الاتصال والتشاور مع المختصين في مختلف الاقطار العربية بعقد ندوة في دمشق (٢٠ ـ ٢٢ كانون الاول١٩٧٧) شهدها نخبة من المؤرخين والمعنيين بالقضايا القومية ، وقد ناقشوا بروح الجد والمسؤولية مشروع اللجنة التحضيرية المقترح وورقة عمل للندوة ، وانتهوا الى تقارير والى توصيات كان من ضمنها « اصدار مجلة دراسات تاريخية ، تكون محكا للافكار ، وميدانا لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منها بعد مناقشته » . ولقد مضى العمل بطيئا في مراحله الاولى. قامت لجنة الاشراف بطباعة كل ما تم في الندوة ، من عرض لفكرة كتابة تاريخ العرب في موسوعة تكون مرجعا شاملا ، وتقديم للمشروع المقترح وورقة عمل ، ثم اثبات كل ما انتهت اليه الندوة من تقارير وتوصيات ، واصدرته في كراس ، ووزعته على المختصين من المؤرخين ورجال الفكر ، والمهتمين بالقضايا القومية في البلاد العربية ، وشفعت كراسها بكتاب يوضح المكانة الهامة التي يحتلها مثل هذا المشروع الكبير ، واهابت بحملة الاقلام من رجال الفكر والتاريخ العرب أن يغذوا مجلة (دراسات تاريخية) ببحوثهم ودراساتهم ومقترحاتهم ، وكل ما يعين على اخراج هذا المشروع العظيم الى حيز التنفيذ .

ان صدور العدد الاول من مجلة (دراسات تاريخية) ، وهو باكورة عملنا ، يحمل في طياته كل تباشير التفاؤل والامل في ان تمضي المجلة الى غايتها مسددة الخطا ، في طريق قاصد ، ترفدها في مسيرتها العلمية اقلام الباحثين والدارسين من المؤرخين والمفكرين العرب ، يرون فيها المجال الرحب للتعبير عن ارائهم وافكارهم حول موضوع من اجل الموضوعات ، واجدرها بالاهتمام والعناية لما له من انعكاس كبير على مجمل حياتنـــا الانسانية والقومية .

ان تلاقح الافكار ومناقشة الاراء وتقليب النظرات على صفحـات المجلة ستكون حافزا محركا ، واداة عطاء لتنضم الجهود المبـــددة ، وتتقارب الافكار وتتعارف ، فيثبت منها ماهو جدير بالحياة والنمو ، وينتفي منها ماهو مصنوع ، لايستمد نسغه من تربة الحق والصدق .

نرجو ان تحمل الاعداد التالية من المجلة ايضاحات اكبر وتطبيقات اوسع لانارة الفكرة التي تنادي بها وتدعو اليها ، وان تتلقى من المؤرخين ورجال الفكر بحوثا ومقترحات ودراسات توازي عظم الفكرة التي صدرت المجلة لتبشر بها ، وتستكثر من دعاتها ومؤيديها .

د . شاكر الفحّام

كتابة تاريخ العرب !
لماذا ؟؟؟

د . أحمد بدر

رئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق

دابت الجماعات البشريـة والشعوب منذ أقـدم العصور حتى يومنا هـذا على توجيه الاهتمام نحـو ماضيها ، فحفظت من أحداثه كل ما يهمها رواية في الصدور او كتابة في السطور ، وتالف مـن كـل ذلك ما نسميه بالتاريخ . ولا يمكن تفسير هـذا الـداب والاستمرار فيه الا بالضرورة الماسة والحاجة الملحـة ، التي تحس بهـا الجماعات والشعوب احساسا يكاد يكون فطريا في أول الامر ، ثم يتبلور تدريجيا في مجـال الـوعي . فالتاريخ يجيب على تساؤلات الانسان الفطرية عن أصله وأصل مجتمعه . وهو الوسيلة التي تبين للمجتمع البشري أن وجوده ليس عـارضا وانمـا مستمرا من الماضي الى الحاضر ، وبأن الامر سيكون كذلك في المستقبل . ولعل الاهم من ذلك كله أن التاريـخ يحـدد هويـة المجتمع بالمعنى الواسع لكلمة الهوية ، اي تحـديد قـدرات هـذا المجتمع في حيز الامكان وقـدراته في حيز الفعل ، مادام أحسن معيار وأكبر منبيء عن قدرات الفرد الحاضرة والمستقبلية ، افعاله ومنجزاته حتى لحظة اجراء القياس .

الاستخدام النفعي للتاريخ :

وهكـذا اعتبرت المجتمعات البشرية التاريخ أداة مفيـدة فوظفتها في خدمة اغراضها وتلبية حاجاتها بعدما كيفتها بالشكل الذي يحقق لها اقصى ما يمكن تحقيقه من فائدة ، اذ جعلت مشاكلها ومعضلاتها الحاضرة محددة لمضمونه لـديها ، وعرضته مقسما على فترات تحددها الحوادث الكبرى بالنسبة اليها ، واتخذت من مثلها واهدافها معايير نقـد تقيس الاحـداث والابطال عليها .

في المجال الاول ، مجال تحديد معضلات حاضر جماعة لمضمون تاريخها ، يتوفر من الامثلة شيء كثير ، ومن الشواهد لدى الامم عدد وفير فاذا بدأنا باليونان نرى هيرودوت يركز ، في اول مؤلف اعتبر تاريخا بالمعنى الصحيح ، على تبيان أوضاع كل من الشعبين الفارسي واليوناني ، وكان الشعبان آنذاك يعيشان مرحلة مجابهة مصيرية ، ويقوم توكيديدس بعده ، وفي فترة كانت المدن اليونانية تمر فيها بمرحلة من الصراع بين اثينا واسبارطة للهيمنة على بلاد اليونان ، وتخضع كل منهما عددا من دويلات هذه البلاد بقدر قوتها ، فيذكر من أحداث الماضي ما يوصله الى شرح العلاقة بين الحق والقوة وبسط قانون الغلبة الذي يسود العلاقات بين الناس والجماعات والدول ويجعل العدل متمثلا بخضوع الضعيف وسيادة القوي . أما عرب الجاهلية القبليون ، الذين عاشوا جو الصراع على البقاء ، فقد استذكروا من الماضي أنسابهم التي تؤكد انحدار أفراد القبيلة من صلب جد واحد . ولايخفى مافي ذلك من خلق تماسك قوي فيما بينهم ، ضروري لهم في معركتهم . كما استذكروا أيامهم والحروب التي خاضتها قبائلهم ، وفي ذلك ما فيه من أهمية ، يحفظ الامجاد وينمي الثقة في الافراد ويبين لهم أعداءهم ويشير الى حلفائهم .

وفي فترات الضعف وأزمان المحن التي تمر بها الشعوب ، تأخذ من الماضي ذلك الجانب وتلك الاحداث التي تعطي درسا وتقدم عظة وتجسد المثل الذي ينبغي أن تحتذى ، كما فعل تيت ليف عند الرومان ، وقد عاصر تناحرا داخليا عند بني قومه وأنانية وتحاسدا وصلت الى حد اغتيال المتنافسين على الزعامة بعضهم بعضا ، فكتب تاريخا لوطنه (روما) حشد فيه من الماضي صورا من التضحية والايثار والبطولة ، وما أدى اليه تمسك الرومان بالقيم الفاضلة من ارتقاء الوطن وعظمته . ويزخر تاريخنا العربي بشواهد من هذا النوع نكتفي منها بايراد عمل المؤرخ أبي شامة الذي عاصر تفكك الدولة الايوبية وما جره ذلك من تطاول الفرنجة على العرب المسلمين واحرازهم المكاسب على حسابهم ، فكتب كتاب « الروضتين في تاريخ الدولتين » ارخ فيه لفترة بعيدة نسبيا عن زمنه لكنها محققة لقصده ، اذ تعرض في كتابه لدولتي نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ، عندما تحققت للقوى العربية والاسلامية وحدتها في مواجهة الغزاة من الفرنجة ، وما أدت اليه هذه الوحدة من انتصارات وتحقيق للاهداف ، فكان أبو شامة والحال كذلك يرسم

لبني قومه طريق الخلاص وتجاوز الهزائم الى الانتصارات عبر توحيد القوى من جديد ٠

وتتجاوز معطيات الحاضر تحديد مضمون التاريخ لتؤثر أيضا في طريقة عرضه ٠ اذ يتخذ كل مجتمع لتقسيم الزمن الى فترات مبدأ مستوحى من واقعه ٠ وهكذا جعل العرب الهجرة مبدأ تاريخهم ، والمجتمعات المسيحية الميلاد ، واليونان أول ألعاب أولمبية ٠ وجعلوا الزمن فترتين ، قبل المبدأ وبعده ٠ وفي العصور الحديثة ، عصور هيمنة اوربة على العالم سياسيا واقتصاديا وفكريا ، قسم تاريخ الانسانية الى فترات واتخذ لتحديد كل فترة حدث كبير بالنسبة لاوربة ووسمت كل فترة بسمة خاصة تنطبق على أوربة دون سواها ، كالقول ان العصور الوسطى عصور تقهقر وظلام ، وهو أمر لا يصح على غيرها ٠ أضف الى ذلك ان تيارات نشأت في اوربة ، وهي في ذروة سلطانها وتحكمها في العالم ، جعلت تاريخ الانسانية وحضارة العالم دائرا في فلكها ٠ فمنها مبدأ الحضارة الانسانية واليها مآلها ، اذ بدأت بانجازات اليونان التي حفظها العرب المسلمون في العصور الوسطى ،ثم استعادت اوربة هذه الحضارة معبعض منجزات من الشرق الاقصى وأقاموا الحضارة الاوربية الحديثة التي عمت العالم ٠ فكأن اوربة والحال كذلك تضفي على الماضي وضع الحاضر وتجعل من تاريخها محور تاريخ العالم ٠

اخيرا يقدم الحاضر وحاجاته مقاييس النقد للاحداث الماضية وأبطالها وفي ضوئها تبرز أخطاء العظماء اضافة لامجادهم وقصور المؤسسات والمؤتمرات عن تحقيق الغايات رغم انجازاتها ، وفي هذا العمل حد من أهم سلبيات هذه الاداة المسماة بالتاريخ ، فأشخاص الماضي واحداثه تصبح بدونها اصناما معبودة ويحل تقليد الماضي محل إعمال العقل فيغدو التاريخ عبئا أكثر منه حافزا ٠

قد يقول قائل ان كل هذا وليد نظرة نفعية للتاريخ وقد عفى عليها التطور العلمي الآن ، بعدما اضحى التاريخ علما هدفه الوصول للحقيقة كهدف بحد ذاتها ، له منهجه الخاص كعلم قائم على تفسير الوثائق التاريخية ، التي تجمع حسب منهج خاص ، يستطيع المؤرخ العمل ضمنه بتجرد لهذا الموضوع الخارج عن الذات ٠

لكننا لو نظرنا الى الامر على صعيد الواقع لا على صعيد النظريات

المجردة ، اي الى الممارسة والى المؤلفات المكتوبة حسب هذا المنظور الجديد العلمي واللانفعي المزعوم ، نرى ان المنهجية روعيت فيجميع مراحل الصناعة التاريخية من توثيق كامل ، ثم نقد وعرض وتعليل وتحليل · لكنها من ناحية اخرى وظفت في خدمة موقف ايديولوجي أو التزام عقائدي عن طريق الموضوعات المبسوطة التي تختار بعناية كي يتم فيها تسليط الاضواء على جوانب محددة دون اخرى من الماضي ، بحيث تخدم اغراضا معينة وتدعم موقفا ايديولوجيا بالذات · ويكفي للتدليل على صحة ما نقول نظرة واحدة على المؤلفات ذات العلاقة بتاريخ العرب والصادرة باللغات الثلاث : العربية والفرنسية والانكليزية في فترة التطور العلمي هذه ، والنسبة العددية العالية التي تتمتع بها تلك المؤلفات التي تبحث موضوعات طائفية أو اقليمية ضيقة ، الامر الذي يدفع للتساؤل عن سر حظوة هذه الموضوعات بهذا الاهتمام الزائد دون غيرها من موضوعات تدخل ضمن اطار التاريخ العربي وتحتل مراتب اعلى في اي سلم اولويات او اهميات يمكن ان يوضع على اساس موضوعي ·

من ناحية اخرى تبقى الموضوعية في علم التاريخ ، حتى على صعيد النظر ، هدفا مثاليا يستحيل تحقيقه ان لم نقل السير نحوه شوطا بعيدا · وينبعذلكمنطبيعة موضوعه وطبيعة معرفته·فطبيعة الموضوع انسانيةلايمكن فصلها عن الذات الانسانية كموضوعات الطبيعة والمادة · كما أن المعرفة التاريخية معرفة غير مباشرة ، باعتبار ان التاريخ علم قائم على تفسير الوثائق التاريخية ، وهكذا يكون الماثل أمامنا الوثيقة أو الاثر وليس الحدث الذي نؤرخه بذاته والذي لا يمكن اعادته للتأكد من صحة ما وصلنا عنه · وتبقى الوثيقة مختلفة عن الحدث لانها عبارة عما أدركه كاتبها عنه ، وتلعب في تكوين هذا الادراك ظروف ذاتية شتى · ويضاف الى الذاتية في كثير من الاحيان انتقائية أيضا ، إذ ان الكاتب لم يسجل الا ما رآه جديرا بالتسجيل من وجهة نظره · لذلك يمكن القول ، انه اذا كان التاريخ بحثا في نشاط الانسان في الماضي فمن المستحيل تسجيل كل نواحي هذا النشاط ، فيقتصر الامر على تسجيل ما هو هام أو ما هو جوهري · ومعيار الجوهري والهامشي أمر خلافي بين شخص وآخر ومن عصر لعصر ·

صفوة القول اذن ، ان الجماعات والاقوام منذ العصور القديمة قد نظرت لماضيها وحفظت أو سجلت منه ما رأته هاما وضروريا ومفيدا

لها في ضوء واقعها ، وانها استخدمت من الاساليب والمناهج ما يساعدها على الوصول الى الهدف ويقربها من الغاية ٠

فاذا كانت شعوب الارض طرا ، قد افادت من تاريخها ـ كما قدمنا ـ فأحرى بالامة العربية ان تولي ماضيها الاهتمام ذاته ، خاصة وانها واحدة من ندرة من الامم في العالم تمتعت بتاريخ ، جمع الى ايغاله في القدم واستمراره ، غناه بالتجارب والاشراق والتقدم ، الامر الذي جعلها تتبوأ مكان الريادة ومرتبة القيادة في مسيرة الانسانية على درب الحضارة في أكثر من فترة ٠ ويمكن تحديد مدى استفادة الامة العربية من تاريخها فيما لو استعرضنا الواقع العربي من زاويتي معضلات الحاضر ومشكلاته ، وطموحات المستقبل ، وفيما اذا كان النتاج التاريخي المكتوب يفي بغرض المساعدة على حل مشكلات الحاضر وينير السبيل لتحقيق طموحات المستقبل ٠

الواقع العربي :

يمر العرب الآن بمرحلة تأكد الذات القومية على صعيد الوعي والشعور والتطلع الى التعبير السياسي للوحدة القومية بانشاء دولة واحدة ٠ لكن هذا الانتصار لفكرة الوحدة علىجميع المستويات لا يعني موت القديم ، بل يبقى ـ كما في التاريخ دائما ـ على شكل رواسب ٠ وفي الوطن العربي من هذه الرواسب الشيء الكثير : منها ما يتجلى بالروح الاقليمية على درجات متفاوتة من السعة والضيق ، من اقليمية ضيقة لا تتجاوز اطار واقع التجزئة الذي خلفه الاستعمار ، الى اقليمية المنطقة ، واقليمية الاجنحة التي يحمل لواءها دعاة وحدة المغرب العربي أو وادي النيل أو سورية الكبرى ٠ وراسب آخر يتمثل بالروح الشعوبية التي ظهرت منذ زمن بعيد واستمرت حتى عصرنا مع تغاير في جنسية دعاتها وتحوير في شعاراتها وتغيير لارديتها بحيث تلبس لكل حالة لبوسها من زمن لآخر ٠ ومع ذلك يبقى جوهرها واحدا ، اذ تنكر على العرب كونهم امة وتنتقص من قدرهم وتوهم بوجود تناقض بين العروبة والاسلام في بعض الاحيان ٠ وبين الرواسب تبرز من فترة لاخرى الطائفية أو العصبية العمياء للطائفة ، التي لم تكن في جذورها أكثر من مذاهب اعتقادية نادى بها فرد أو أفراد ثم تبنتها جماعات بسبب ظروف اقتصادية أو اجتماعية او سياسية منفردة او مجتمعة ، فضخمت من حجمها ومن

بروزها على مسرح الاحداث ، ثم لم تلبث الاضطهادات في عصور الانحطاط خاصة ان الجأت اتباعها الى التقوقع على انفسهم في مناطق محددة • وولد ذلك مع الزمن شعورا بشخصية متميزة • وغدا هذا الشعور شاذا ومرضيا في المجتمع عندما تخلف بالبقاء بعد زوال الظروف التي ادت لنشأته ، ثم بلغ مبلغ الخطر عندما ارتبط أحيانا بالمستعمر ودعا لمصلحته – وبدافع منه احيانا – الى تجسيد الشخصية الطائفية بكيان سياسي •

على الرغم مما تسببه هذه الرواسب من انقسامات في المجتمع الا انها تبقى غير ذات بال ، وهناك ما يماثلها في بعض المجتمعات الاخرى ، لكن ما يجعلها خطرة في هذه الفترة بالذات كون الامة العربية تجابه تحديات كبرى ، تتمثل بالتحدي الحضاري المتجة نحو طمس معالم الشخصية العربية وازالة خصوصيتها ، وتحدي الوجود العربي باغتصاب قلبه واقتطاع الاطراف من أغلب جهاته • ومازال هذا التحدي قائما يهدد بابتلاع المزيد من القلب وما حوله واقتطاع المزيد من الاطراف •

أما الطموحات فتتجه نحو القضاء على هذه السلبيات من رواسب وتحقيق الوحدة العربية في جميع المستويات وتحرير ما اغتصب واسترداد ما سلب عبر استيعاب ما هو لازم وضروري من علوم العصر وتقنياته • وبقدر ما يتحقق من ذلك تتوافر الشروط الموضوعية الملائمة لممارسة الانسان العربي حريته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما يفسح المجال رحبا لتفجير طاقاته وتأهيله لحمل الرسالة من جديد والاسهام في بناء الحضارة الانسانية واحتلال مكانته اللائقة في ركب الحضارة المتجه الى الامام •

هذا هو الواقع الراهن وتلك هي التطلعات المستقبلية ، فهل نجد فيما كتب عن تاريخ العرب ما يساعد على معالجة المعضلات وتحقيق التطلعات •

ما كتب في التاريخ العربي :

يمكن جمع هذا المكتوب في زمرتين كبيرتين ، التاريخ التراثي والدراسات الحديثة •

للعرب في المجال الاول تراث تاريخي ضخم انتج جله في العصور الوسطى ، ويعتبر بحق قمة لعصره من جميع النواحي : في جمع المصادر

ونقـدها وفي سعة نطاقه في المكان حتى كاد يصبح تاريخا للعالم كله ، وفي الزمان لـدرجة الطموح لسرد تاريخ الانسان منـذ وجوده علـى سطح الارض الى عصر المؤلفين · ومع ذلك فان الاكتفاء بـه والوقـوف عنده يعني الجمود بعينه ، لان ذلك يعني التخلي عن كل التقدم الذي احرزته الدراسات التاريخية في العصور الحـديثة وبخاصة في مجال استخـدام العلوم المساعـدة · أضف الى ذلك ان تغير الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وتباين القيم بين العصور ، يجعل هذا التراث كما هو عليه غير ملائم ليكون تاريخا في عصرنا · اذ ارتبط كل مؤرخ من مؤرخينا القدماء بحاجات مجتمع عصره ، فمن عاش دور الفعاليات القبلية اقتصر نطـاق التاريخ عنده على مجال نشاط هذه القبائل ، وآخـر عاش في ظـل نعمة خلفاء فـدار حديثه حول ما ارتبط بهم وأطنب في وصف عادات هـؤلاء الخلفاء الشخصية وتبسط في ذكر اخبار حياتهم العائلية ، ورأى في مآدب ختـان أولادهم والاحتفال بزفافهم امرا يستحـق ملء صفحات في ذكـر تفاصيله ، في حين لم يجـد في حـدث آخر كانشاء أول معمل ورق ، على سبيل المثال ، بكل ما يؤدي اليه من نتائج فكرية واقتصادية شيئا يستحق الـذكر · وفريق اخر من هؤلاء المؤرخين عاش في اجواء الكتاب والموظفين الكبار فكانت نشاطاتهم ومؤامراتهم محور الاحداث التي بسطها وهيكلها ·

من ناحية اخرى انطلق بعض المؤرخين في أحكامهم من منطلق متأثر بعصرهم ومنسجم مع انتمائهم الاجتماعي ، فقـد عاشوا في جـو يتمتـع فيه الخليفة أو السلطان بسلطات مطلقة ويدور كل شيء بأمره · فعزوا كل الامور لهمم الفرد ونسبوا عظائم الاحداث لرغبة رجـل وأمره وقراره الذي اتخـذه بحرية ، وكأنـه لا وجـود لضغط أو لظـروف محيطة ،من سياسية واجتماعية واقتصادية كان الامر والقرار نتيجة منطقية لها · اما تجاه الناس العاديين الذين كوّنوا الجماهير العريضة ، فكان كثير من هؤلاء المؤرخين لا يولونهم اهتماما الا عنـدما يتعلق الامر بعلاقتهـم بالحكام ، وتـدل التسميات التي يطلقونها عليهم على مدى الامتهان والازدراء الذي يكنونه لهم ، مثل « الغوغاء » « الاوباش » « السفلة » · كما اعتبروا تحركات هؤلاء فتنة حتى لو كانت لدفع ظلم أو رفع حيف وسموا زعماءها باسم « الخبيث » و « المارق » · ولا يخفي ما في ذلك من تناقض مع قيم العصـر الحاضر ومفاهيمه اذ أصبحت الثورات من هـذا النوع ذات قيمة سامية والقائمون بها قادة وروادا ·

لم نقصد من ايراد هـذه الامثلة الى سلب المؤلفات التاريخية القديمة قيمتها . فهي رغم كل ذلك كنز ثمين ، الا انها ليست التاريخ المناسب الـذي ننشـده أو بتعبير آخر ليست بالاداة النافعة . بل هي المادة الخـام الاولى التي تصنع منها هـذه الاداة . ولكي تصبح التاريخ المنشود يجب الاستقاء منها واضافته لما ورد في المصادر الفقهية والجغرافية والاثرية كي نكمـل رسم الصورة للفعاليات والاحـداث التي نعتبرها هامة في ضوء حاجات الحاضر العربي ومستقبله .

أما الـدراسات الحـديثة فجل ّ ما انتج منهـا واوائله كان مـن المستشرقين الـذين قـد ّموا بعملهم خـدمات جلى للتاريخ العربي ، بما قاموا به من نبش آثار واكتشاف اصول وتحقيقها ، واتباع أساليب البحث الحديثة في كل مجالات التاريخ العربي السياسية والاقتصادية والفكـرية والفنية . لكـن ما يحـد من قيمة هذا العمل العظيم هـدفه الـذي حوله في بعض الاحيان الى أداة خطرة . فمن المعروف ان الاستشراق رافـق الاستعمار . ولم يكن هدفه المعرفة لذاتها ، بل معرفة الوطن العربي وأقطاره وشعوبـه معرفة شبيهـة بمعرفـة الطبيعـة للسيطـرة عليهـا أو التكيف معها ، فهي اذن معرفة تبغي الوصول لانجـع السبل في التعامل مع الوطن العربي ، تحييدا هنا وسيطرة هناك ، أو إثارة . ولا أدل على ذلك من كون أغلب الدراسات المتعلقة بقطر من الاقطار قام بها مؤرخون من البلد المستعمِر، ولعـل أهـم النـواحي التـي تتجلـى بهـا أخطـار هـذه الـدراسـات توجهات الكثير منها وانصرافها لتسليط الاضواء الساطعة على موضوعات التناقض في صفوف المجتمع العربي كالـدراسات المستفيضة عن الاقليات والطوائف الـدينية . ومثل هذه الابحاث في الخطر تلك التي تنمي النزعات الاقليمية كما يظهر في المؤلفات عن تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، حيث تبرز تناقضه مـع المشرق وتجعـل محـور تاريخـه الصـراع مـع المشرق للخـلاص مـن حكمـه . وأخيرا ، فان ما يـدعو للحـذر مـن عمل المستشرقين كون نسبة لابأس بها منهم يهودا تظهر صهيونيتهم ويصعد ّون من دسهم بقـدر ما يحتـدم الصراع العربي الاسرائيلي .

تـدخل في نطاق الـدراسات الحـديثة أيضا أعمال المؤرخين العرب الـذين انتظمتهم تيارات . ورغم تـداخل هـذه التيارات عنـد أكثرهم ، فقد غلبت على بعضهم نزعـة سلفية فلم يتجاوزوا فيما كتبوه عـن ماضي العرب جمع نصوص قـديمة ، لا على سبيل الاستقصاء ، بل بغاية استكمال

جوانب صورة معقولة ، كما لم يبذلوا كبير عناء في نقد وتحليل ما ينقلون ، أو يبذلوا جهدا لتجاوز المصنفات التاريخية التراثية بالمعنى الدقيق الى مصادر اخرى من علوم مساعدة ، واكتفوا اضافة لذلك بأخذهم عن الطريقة العلمية في البحث قضية التهميش ، رغم انها لا تقدم ولا تؤخر كثيرا وتبقى شكلية لانها كالاسناد في القديم ·

أما التيار الآخر فقد سار على نمط الدارسين الاوروبيين منهجا وأسلوبا ، ثم تمايز أصحابه ، فمنهم من قلد تقليدا يكاد يكون أعمى دونما أي التزام أو انطلاق من موقف قومي أو فكري ، بحجة الموضوعية و « العلم للعلم » فقط · ولهذا الفريق ، أبحاثه العلمية التي يسلط فيها الاضواء على أي موضوع من الموضوعات ، اختاره لمجرّد توفر مصادره لديه أو لكونه مكملا أو موسعا أو موضحا لبحث أو أبحاث تطرّق اليها مستشرق ما · ومثل هذه الابحاث حتى لو استبعدنا ما قد يكون لها من اثر سلبي لا تفي بالغرض · لانها كأبحاث أكاديمية لا تعرض الا لامور محدودة النطاق ضمن اطار التاريخ العربي ، وبالتالي فهي لا تحدد له مسارا ، ولا تصل حتى بمجموعها الى تغطية فترة هامة · الا أن البعض الآخرممن حذا حذو المستشرقين في البحث أخذ من الاستشراق منهجه وطريقته فقط وخالفه في غايته واهدافه ، وذلك بتوظيف الابحاث لمنفعة قضايا العرب · وهكذا جاءت أبحاثه في توجهاتها ومواضيعه في عناوينها ومضامينها معبرّة عن التوفيق بين الالتزام القومي ومقتضيات البحث العلمي ، مما جعل لعمله قيمة كبرى لا في تقديم معلومات جديدة وموثوقة فحسب ، بل لانه كان نموذجا يحتذى ومرشدا لاتجاه يمكن سلوكه وطريق يسهل على من يرغب اتباعه · لكن هؤلاء كانوا قلة وكذلك انتاجهم · أضف الى ذلك ان دراساتهم ككل الدراسات الاكاديمية لا تغطي حيزا كبيرا ولا تكفي بالتالي لتحديد مسار التاريخ العربي العام ·

يدخل في نطاق هذه الدراسات الحديثة كتب تاريخ عامة ، منها ما هو معجمي كالموسوعات تعظم فائدتها وتجلّ خدمتها في تقديم معلومات تفصيلية ، لكنها لا تعطي خطا تاريخيا وهو ما يهمنا في هذا المجال · اما كتب التاريخ العام فلا تعدو كونها مختصرات تفتقد الاساس العلمي لكونها لا تعتمد على مجموع الدراسات التفصيلية في التاريخ العربي ، كما أن نطاقها لا يقتصر على العرب فقط بل يشمل التاريخ الاسلامي كله ، ولهذه الاسباب ولاسباب اخرى متعددة فقدت هذه

الكتب غالبا وحدة الموضوع وخط البحث المتصل لنفس الظواهر المتماثلة . ورغم عناوينها الكبيرة بقيت مضامينها دراسات مختصرة لتواريخ دول عدّة يصعب على الدارس أن يجد فيها الاساس الذي يتحكم في اختيار الظواهر التي تدرس في كل قطر أو دولة والتي كثيرا ما تتباين وتتغاير من دولة لاخرى . ورغم قلة عدد هذه المؤلفات وتدني مستواها العلمي الذي يبرز أكثر في المؤلف العربي منها ، فانها شديدة التأثير على الثقافة التاريخية العامة في البلدان العربية لانها غالبا ما تكون المصدر الاساسي لكتب التاريخ في التعليم العام .

التاريخ المطلوب :

ما هو مكتوب عن تاريخ الامة العربية اذن يشكو من علل كثيرة ، فهو لا يغطي هذا التاريخ ولا يرسم له مسارا ، ولا تتوافر في قسم كبير منه ضرورات البحث العلمي ، وهو فوقذلك كله يستخدم أحيانا كأداة ضد الامة وأهدافها بدلا من أن يوظف في خدمتها ومعالجة مشكلاتها الحاضرة وتطلعاتها المستقبلية . ومن هنا تنبع الضرورة القصوى والحاجة الماسة لتلمس طريق مناسب لكتابة تاريخ عام للامة العربية يتعاون فيه الشكل والمضمون على تلافي الآثار الضارة لما هو مكتوب عن تاريخها ، ويحقق لها في الوقت نفسه الفوائد التي تتوخاها الامم من تاريخها القومي .

يمكن للشكل أن يسهم في تحقيق الهدف من نواح شتى ، فمجرد كون التاريخ المكتوب عاما وتاريخ أمة يحدد مسارها عبر الزمن منذ الخطوات الاولى لتكونها حتى العصر الحاضر يعزز في الفكر دون شك فكرة الوحدة ويثبت في الذهن خصوصية هذه الامة وشخصيتها الحضارية المتميزة . ومما يساعد على الوصول الى الغاية ترتيب الوقائع لهذا التاريخ العام على أساس شرائح افقية زمنية تستعرض تاريخ الوطن العربي والعرب كأمة في فترة زمنية محدّدة تلو فترة ، وبذلك تصبح وحدات مادة التاريخ العربي الكبرى ظواهر متتالية ومتفاعلة ، الامر الذييتيح لنا تتبع جذور الوحدة العميقة بين أجزاء الوطن العربي رغم تباين السلطات الحاكمة . وعلى سبيل المثال اشتهرت سياسة التسوية الاسلامية بين عناصر الدولة بأنها من خلق العباسيين ، ولكننا نرى الاندلس الخاضعة للامويين في نفس الفترة تطبق فيها السياسة نفسها ،

حيث موالي الامويين يقيمون لهم فيها الدعوة ، وبعد انتصارهم وتأسيس دولتهم في الاندلس نرى جيشهم يتكون من عناصر متعددة ، أبناء القبائل العربية والموالي والمغاربة ، وطبقت نفس سياسة التسوية في مجال الوظائف المدنية أيضا ٠

من ناحية اخرى تتجلى فائدة وعلمية عرض مادة التاريخ العام للامة العربية على أساس الشرائح الافقية عند استعراض الترتيب على اسس اخرى ٠ فالترتيب على اساس قطري عمل غير علمي نظرا للارتباط الشديد بين أي قطر وأجزاء الوطن العربي الاخرى ، بحيث يصعب فهم بعض الظواهر أو تفسيرها دون التعرض لامتداداتها عبر الوطن العربي كله ٠ أما الترتيب على أساس السلالات فهو مناف للعلمية لانه منطلق من مقولة عفى عليها الزمان . تقول بأن التاريخ من صنع عظماء الافراد ٠ كما انها لا تعكس لنا صورة حقيقية عن حياة الامة وتحدث انقطاعا في مسيرتها عبر التاريخ ، لان السلالات العربية الحاكمة انقطعت لفترة هنا وهناك ، مع اختلاف في طول أمد هذا الانقطاع بين منطقة واخرى ، في حين استمرت الامة ولم تنقطع فعاليات أبنائها في جميع المجالات حتى السياسية والحربية منها ٠ ونجد مثلا واضحا على ذلك في بلاد الشام حيث تحمل الشعب وتنظيماته العبء الاكبر في صد الهجمات المغولية عندما كان الحكم فيها للمماليك ، وفي المعارك الكبرى التي خاضتها قوى البلاد ضد الغزاة من فرنجة ومغول نلاحظ أن نسبة أبناء البلاد كانت كبيرة بحيث كونت الاكثرية الساحقة بين هذه القوى ٠

يتمتع المؤرخ بحرية واسعة عندما يتعلق موضوع عمله بالشكل أو بالعرض ، لكنه يفقد هذه الحرية عندما يتصل عمله بالمضمون اذ لا يستطيع ابتكار أحداث لم تقع ، كما انه عندما يفسر الحوادث لا يمكنه تحميل النصوص أكثر مما تحتمل دون ان يخلّ بالحقيقة خللا واضحا ٠ لذا ليس المرغوب بالنسبة لتاريخ الامة العربية تجاوز الحقيقة العلمية في البحث ، وانما بسط الوقائع موضوعيا ، وعرضها بالشكل الذي يخدم مصلحة حاضر الامة ومستقبلها في اطار الموضوعية ، كالتأكيد على الحقائق التي تخدم الهدف ، والرؤية المتبصرة للاحداث لتبيين مغزاها واكتشاف القيم الحقيقية وراءها في ضوء مفاهيم العصر والربط بين الوقائع التي يؤدي الربط بينها الى نتيجة تخدم حاجات الامة ومستقبلها٠ وعندما تتعلق الواقعة بأمر ذي علاقة بسلبيات الحاضر العربي

كالحساسيات العقائدية والحزازات الاقليمية والتعصب فيهما ، تقلل طريقة العرض من درجة السلبية ، اذا ميز فيها بين الجذور البسيطة والتراكمات التي تجمعت فوقها مع الزمن والمبالغات التي اضافها المؤرخون للحوادث المتعلقة بها جيلا بعد جيل . اما التفسير فمن الضروري ان يسير في نفس الاتجاه ، أي تفسير الاحداث والوقائع انطلاقا من الظروف المحيطة بها وليس من نظرية ثابتة ، وعند تكافؤ الادلة بالنسبة لتفسيرين لا ضير على الموضوعية من الاخذ بأقربهما لمصلحة حاضر الامة ومستقبلها .

تتضح هذه الافكار النظرية بشكل جلي فيما لو أوردنا بعض القضايا كأمثلة . من هذه القضايا واحدة تمثل بعض الوقائع في تاريخ العرب التي تحتمل أكثر منتفسير وتترك للمؤرخ اختيار الاكثر نفعا لمصلحة الامة . وتتعلق هذه بقضية الاجابة على التساؤل من هم العرب ؟ ومتى يبدأ تاريخهم ؟ . وتنبثق أول مرحلة من الاجابة من ملاحظة واقع موضوعي هو تشابه يقرب من التماثل في لغات أكثرية ساكني الوطن العربي في القديم ، وادى هذا الى افتراض انبثاق هذه اللغات عن لغة أم مما يستدعي وجود شعب واحد تكلم بها ، وبحث عن موطن هذا الشعب وهنا تعددت التفسيرات . وشاع ورجح تفسير وينكلر وكايتاني القائل بأن موطن هذا الشعب هو الجزيرة العربية ، فمنها انطلق في هجرات متعددة منذ القديم وعند ظهور الاسلام وخلال الفترة التي تلت ذلك . وكان العامل وراء هذه الهجرات حلول الجفاف التدريجي في الجزيرة العربية بعدما كانت غزيرة المياه كثيفة النبات تكثر فيها الوحوش من فصائل عدة . مثل هذا التفسير يبدو وكأنه متعلق بالناس لا بالارض وبالقوم لا بالوطن . أو انه تفسير بدوي للامة بحيث تتحدد أرضها بمدى انتشارها ، فتضيق في فترة وتنبسط في فترة اخرى . اضف الى ذلك ان هذا التفسير لا يجيب اجابة مقنعة على كل الاسئلة التي تطرح حول الاصول الاولى للعرب . اذ ان التشابة اللغوي جزء من تشابه عام في جميع مظاهر حضارات سكان الوطن العربي في القديم فهل نستطيع أن نرد ذلك التشابة كله الى الاصل الذي انطلق من الجزيرة العربية ، علما انه انطلق في حالة بداوة وعلى فترات متباعدة هربا من القحط والجفاف نحو مناطق خصبة مروية ، وتزخر بالتالي بسكان متفوقين كما وكيفا – الى حد كبير – على المهاجرين . فلمن تكون الغلبة حضاريا ؟ يرجح منطقيا أن تكون للمتحضرين في أغلب النواحي . اذا كان من الصعب رد التشابه

الكبير في مظاهر الحضارات الى الهجرة من الجزيرة العربية كعامل وحيد على الاقل ولا بد من البحث عن عوامل أخرى ، فما هي هذه العوامل ؟ هل نستطيع القول ان البيئة الطبيعية الواحدة التي ميزت أرض الوطن العربي مع بعض الخصوصيات في هذا المكان أو ذاك ؟ قد يساعد على هذا الافتراض ان القاعدة العامة المستخلصة من دراسة تاريخ الانسانية تقول : بأن حضارة الانسان نتاج تفاعل بين الانسان وبيئته ، ويكون النتاج لمصلحة البيئة وعلى حساب الانسان كلما كان بدائيا ٠ وهذا يعني ان عامل الحسم بالنسبة لتلك العصور السحيقة في القدم بالنسبة للعرب هو عامل البيئة التي ستسهم وحدتها في خلق حضارات متشابهة ٠ وقد زادت في هذا التشابه كما وكيفا عمليات الهجرة من مكان الى آخر ضمن اطار بيئة الوطن العربي الواحدة وتعدى نطاقها الهجرات من جزء الى آخر في جناحه الشرقي الى الهجرات من المشرق الى المغرب وذلك قبل ظهور الاسلام وعند الفتح وبعده بقرون عدّة ٠

هذان هما التفسيران لواقعة بداية التاريخ العربي فبأيهما نأخذ ؟ هل نأخذ بالتفسير الاول الذي يجعل العرب هم سكان الجزيرة العربية الذين انطلقوا في هجرات الى الشمال اولا عبر العصور القديمة ، ثم انساحوا بعد الاسلام وعرّبوا منطقة الوطن العربي ، وفي هذه الحال ما هوية حضارات قديمة قامت على أرض الوطن العربي ، كحضارة السومريين في بلاد الرافدين وحضارة مصر القديمة ؟ والى من تنتمي ؟٠ أم نأخذ التفسير الثاني الذي ينطلق من الارض ومن البيئة الواحدة ، ولا يعلق أهمية على التسميات ويجعل كلمة « عرب » كلمة متطورة المضمون، أطلقها في الاصل بعض مجتمعات الوطن العربي على مجتمع آخر كعنوان لنمط بدوي وليس كاسم علم ٠ وبالتالي فان المقصود بها بعد ذلك مغاير في مضمونه للمضمون الاول اذ أصبحت اسما عاما لمجموع هذه المجتمعات المقيمة على أرض الوطن العربي والتي انصهرت في كتلة واحدة عبر العصور وخاصة اثر تكون الدولة العربية الاسلامية وقيام الفتوحات ٠ وينجم عن هذا التفسير لبداية التاريخ العربي ان كل الحضارات التي ظهرت على أرض الوطن العربي هي حضارات عربية ٠

لا شك أن الجزم ، لا بل حتى الترجيح ، في هذا المجال ، أي الاخذ بأحد التفسيرين منوط بعلماء الآثار وفقه اللغة المقارن وغيرهما من العلوم المساعدة المتصلة بالبحث في التاريخ القديم وما قبل القديم ٠ ومع

ذلك فان المؤرخ يستطيع تقديم بعض الدلائل غير المباشرة على ارجحية الانطلاق من الارض في تحديد بداية تاريخ الامة العربية · ولعل أكثر هذه الادلة وضوحا ترسخ العروبة بعد انتشارها في بقاع واسعة من الارض في بيئة الوطن العربي فقط وانحسارها عن سائر المناطق الاخرى بمرور الزمن · فقد انتشر العرب خارج هذه البيئة الى الشرق من جبال زاغروس والى الشمال من جبال طوروس وفي أقصى الغرب عبر شبه الجزيرة الايبيرية · فحكموا في هذه البلاد واستوطنت فروع من قبائلهم وعشائرهم بها وسادت لغتهم عليها ، ومع ذلك انحسر الوجود العربي بعد ذلك رغم بقائه عدة قرون بلغت في الاندلس ما يزيد عن ثمانية ·

اذا كانت الواقعة السابقة من الوقائع الخلافية ، فان وقائع تاريخية ثابتة لا لبس فيها وتحتوي على ما يفسر الواقع العربي وما فيه من تطلعات وتدعم في الوقت نفسه هذه التطلعات اذا ما تم ابرازها والتنبيه عليها · منها تلك الجذور القديمة ، للتطلع نحو التعبير السياسي عن الوحدة العربية بالدولة الواحدة · اذ بالرغم مما هو شائع ومشهور في أغلب كتب التاريخ · من ان الوحدة السياسية في التاريخ العربي لم تدم أكثر من مائتي عام ثم انفصمت ولم يبق منها سوى الوحدة الحضارية وبالتالي فان القاعدة في الحياة السياسية ــ حسب هذا الرأي ــ هي التجزئة والاستثناء هو الوحدة · فاننا نجد جذور التطلع الوحدوي قائمة دوما ومستمرة ابدا ، وتتمثل باعتبار الوحدة مثلا أعلى سياسيا لا تستقيم الامور بدونها ، وقد انعكس ذلك ببقاء مؤسسة الخلافة هذا الزمن الطويل ، بصرف النظر عن مدى قوتها أو ضعفها · وكذلك باحترام فكرة ومبدأ وحدة الخلافة ، الامر الذي جعل المستقلين بالولايات في المشرق والمغرب يسعون للحصول على تفويض من الخليفة بحقهم في حكم ما تحت ايديهم أما الذين لا يسعون الى ذلك من أمثال المنضوين تحت لواء مذهب ديني مناقض لمذهب الخليفة فانهم لا يحكمون بلدهم على اساس الانفصال عن سائر الاجزاء وانما يطرح كل منهم نفسه كخليفة بديل وصاحب الحق في حكم دولة الخلافة ، وهذا ما فعله قادة الخوارج في المغرب حيث اسسوا أكثر من دولة وكذلك الفاطميون ·

اذا لم يتوفر للمثل الاعلى السياسي في الوحدة أن يتجسد على أرض الواقع في عدة فترات من التاريخ العربي ، فلا يخلو الامر من وجود وحدة عمل بين القوى العربية وخاصة في الامور المصيرية عند

مجابهة الخطر الخارجي ، كما في عملية الصراع على المتوسط بين العرب والبيزنطيين الذين سادوا هـذا البحر لفترة طويلة ، وقطعوا طرق الاتصال البحري بين أجـزاء الوطن العربي • اذ ردّ العرب علـى ذلك بعمل موحـد على الرغم من التجزؤ السياسي على أرض الواقع ، وقام كل طرف منهم بانجاز جزء من هذه العملية الكبيرة ،عملية بسط السيادة العربية الاسلامية على المتوسط • وشارك بعضهم بعضا في معركة واحدة ضـد العـدو بالرغم ممـا بين السلطات السياسية من تنافر وعـداء ، فالمطرودون من قـرطبة احتلـوا اقريطش وسدّوا علـى البيزنطيين منافـذ بحر ايجة ، وانطلـق الاغالبة من تونس ليفتحوا صقلية • وفي لحظة حـرجة اوشك فيها جيشهم على الفناء انضم اليه اسطول انـدلسي واسهم في تغيير الوضع وتسيير العملية الى نهاية مظفرة ، وذلك على الرغم مما بين الاغالبة وأمويي الاندلس من خلاف وتنافر •

من ناحية اخرى كانت الحياة الاقتصادية للوطن العربي تسير أيضا في اتجاه دعم عوامل التوحيـد في الميـدان السياسي اذ كـوّن ما يشبه السوق الواحـدة يقوم فيها بلـد واحـد بتزويـد الوطـن العربي بمادة تتوفر فيه كقيام الاندلس بتجهيز الزئبق ، وبمـد الجنـاح الغربي للجنـاح الشرقي بالمعادن المستخرجة من أرضه أو المستوردة عن طريقه كالـذهب •

كـذلك لم تكن قضية وحـدة المصير العربي حـدثا عارضا استدعته ضرورات الردّ على الاستعمار الغربي ، بل كان لها جـذورها في الماضي وتتجلى بكون أجزاء الوطن العربي قد مرت بمراحل واحـدة منـذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ، رومان فبيزنطيون فعرب مسلمون فعثمانيون فأوربيون توالـوا على السيادة فيه • وفي فترات حاسمة من التاريـخ كان ضعف جزء من الوطن العربي يلحق الاذى بالاجزاء الاخرى ، فسقوط جزر المتوسط في القـرن الحادي عشر بيـد الاوربيين مكـن هؤلاء مـن القيام بحملاتهم على المشرق التي سموها بالصليبية ودعاها العرب غزو الفرنج • وبعـد ذلك بعـدة قرون أدت هزيمة المغاربة أمام الاسبان والبرتغاليين الى افساح المجال أمام الاخيرين كي يدوروا حول افريقيا ويقضوا على التجارة العربية في المحيط الهنـدي •

ننتقل بعـد هـذا الى قضية التأكيد علـى الوقائع التاريخية للعـرب ذات العلاقة بالقيم الاخلاقية والانسانية التي تشغـل حيزّا لابأس به مـن

التاريخ العربي ، وفي طليعتها ما سمي بالفتن التي شوّه عرضها لاسباب عدة ، من منطلقات المؤرخين القدماء ، الى تطبيق مناهج معينة بشكل آلي لدى بعض المؤرخين المحدثين ٠ فقد نظر المؤرخون القدماء لحوادث الاقتتال كلها بمنظار واحد واعتبروها فتنا وخروجا عن الجماعة وعن الدين كذلك ، ونادى البعض في العصر الحديث بضرورة تحاشي ذكرها ما أمكن في كتابة التاريخ وحتى حذفها ٠ لكن النظر اليها برؤية عصرية تؤدي الى نتائج مختلفة ٠ اذ لا يمكن تصور مجتمع دون تناقضات وصراعات يكون أداتها اللسان حينا وحد السنان حينا آخد ٠ ومن ناحية اخرى يبين لنا تتبع وقائع ما سمي بالفتن في عصور متطاولة من التاريخ العربي ان قسما منها فقط يستحق هذا النعت ، لكن الكثير منها كان نتاجا لتعلق مستمر بالحرية والاستعداد للبذل والتضحية حتى بالنفس في سبيل الرأي ، فهنا يحمل السلاح فريق ويقدم حياته دفاعا عن موقفه السياسي، وهناك يفعل الثاني ما فعله الاول دفاعا عما يعتقد انه عدل وثالث تعييه الحيل في رد ما يعتقد انه ظلم لحق به أو بجماعته فيمتشق الحسام لدفعه ٠

أما في الميدان الحضاري فتبرز القيم بشكل أوضح واجلى ، كالانفتاح على المنجزات الانسانية والاقتباس منها ضمن اطار الحاجة ، ودون أن يجد المقتبس غضاضة في التصريح عما اقتبس واسناد الفكرة لصاحبها والاعتراف بالتقدير له ومشهور لقب المعلم الاول الذي سمى العرب به أرسطو ٠ الا أن الانفتاح أضحى عرضة للتشويه لدى الكثيرين من المؤرخين المحدثين واصبح عندهم مرادفا للنقل ، وبالتالي انكار قدرة العرب على الابتكار ، وكاد البحث عن مصدر عند الآخرين لكل فكرة جديدة تظهر لدى العرب يصبح نهجا ثابتا لدى المؤرخين ، وذلك خلافا للمسلم به عند فلاسفة التاريخ منذ أيام الايطالي فيكو في القرن الثامن عشر ، بأن « ظهور فكرة ما في حضارتين مختلفتين سواء في زمن واحد أو في زمنين متباعدين لا يعني بالضرورة اقتباس احدى الحضارتين عن الاخرى ، بل غالبا ما يحصل ذلك نتيجة للتطور الذاتي » ٠ وعلى الصعيد العملي نجد أمثلة كثيرة لهذا النهج ، ومنها الزعم بأن مذهب المرجئة يعود الى فكر بيزنطي ، مع أن تتبعا واعيا للتطورات السياسية والاجتماعية عند العرب في فترة نشوئها يدل على ان هذه الفكرة وليدة هذه التطورات التي انقسم فيها العرب الى فئات متناحرة يعتبر كل منها

الآخر كافرا ويجرد السيف لقتاله · وقد ادى ذلك بدوره وفي الوقت نفسه لظهور اناس تورعوا عن قتال اخوانهم في الدين ، ورأوا ان المبرر غير كاف وامتنعوا عن التقييم وتركوا أمره لله · وكذلك الامر في النزعة المساواتية التي برز على راسها ابو ذر اذ عزاها البعض الى المزدكية الفارسية القديمة · علما بأن مراجعة نصوص تاريخ الفترة ، تبين أن هذه النزعة ظهرت بأشكال متعددة لدى اوساط واسعة من العرب ، وان أقوال ابي ذر ليست استعارة أو نقلا وانما تعبيرا عن رأي قطاع واسع من الناس ·

ان القضايا الكثيرة التي يحفل بها التاريخ العربي لا تقتصر على تلك التي تدعم ما هو ايجابي في الواقع العربي الحاضر وتخدم تطلعات المستقبل · فهذا التاريخ يحتوي على الكثير أيضا مما ينفع في معالجة الرواسب الضارة التي مازال بعضها حيا ، ولكن على درجات متفاوتة من القوة ، ويبرز واحد منها بين حين وآخر من مجال الكمون الى مجال الفعل ليعيث هدما وتخريبا وتقسيما وتفرقة في المجتمع · وتبدو الاقليمية والطائفية مثلا بارزا على مثل هذه الرواسب وعلى مدى اضرارها ، ومن شأن دراستها في واقع ظهورها وتطورها عبر الزمن ان تفقدها الكثير من قوتها الضارة واثرها المخرب · فاذا اتبعنا هذا النهج رأينا انها لم تكن في الاصل أكثر من موقف سياسي واجتماعي ، أو نزعة فكرية أو مذهبية لفرد أو جماعة قليلة العدد لا تلبث أن تنتشر ، والموقف والفكرة كلاهما لا ينتشران ولا ينبعان من فراغ وانما يثير وجودهما وانتشارهما ويدفع اليه واقع موضوعي بعناصره الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فيتولدا منه أو يظهرا كرد عليه · وفي الصراع الذي ينشب بين المهيمنين والمسيطرين في هذا الواقع وبين أصحاب النزعة او الموقف من جهة اخرى تطرأ تحولات على الطرفين : الواقع والاطراف المتنازعة ، وتستمر سلسلة التطورات من خلال صراع المتضادات هذه ، وبالتالي تزداد التراكمات على الاشكال البسيطة للنزعة الاولى او للموقف السياسي وتصل الينا بالشكل الاخير وقد اختلطت الاصول بالتراكمات وبمبالغات المؤرخين الذين نقلوا الاخبار جيلا بعد جيل ·

فاذا ما تتبعنا التطورات بدقة ووصفنا بعلمية خط سيرها اسهمنا في اضعاف اثر بعض الترسبات الضارة الى حد كبير ــ كتلك الحزازات

الاقليمية بين قبائل المغرب وحكام المشرق التي يحاول بعض المستشرقين احياءها ـ ما دامت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدت لوجودها قد زالت ٠ واذا ما بقيت بعض النزعات لارتباطها بمذهب أو عقيدة ، الا ان اثرها يحجم بحيث يزول كتناقض رئيسي ليصبح هامشيا في حياة أصحابه وحياة المجتمع ٠ عند ذاك لا تثير الاحداث الماضية المتعلقة بالصراع بين أصحاب هذه النزعات وغيرهم في النفوس حقدا ولا شعورا بشخصية متميزة ، وانما شعورا بالاشفاق ، كما ننظر للمعارك الدموية التي جرت بين القبائل العربية قبل ظهور الاسلام وبعده بقليل ٠ وتنكمش حدود التناقضات لتصبح شبيهة بتلك الفوارق الموجودة بين مدن متقاربة في قطر واحد أو بين أحياء متجاورة في مدينة واحدة ٠

* * *

انتشار الإسلام في الخليج
في زمن الرسول الكريم
ملاحظات ومنطلقات للدراسة

د . نبيه عاقل

عميد كلية الاداب بجامعة دمشق

ان مافي المصادر الأولية من معلومات حول موضوع انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي صورة قد تكون مرضية للمؤرخ الذي يكتفي من التاريخ بان يكون عرضا لما يقع له من معلومات حول الحادث دون ان تثير هذه المعلومات في ذهنه التساؤلات التي لابد من جواب واضح عليها لتكون الصورة متكاملة الجوانب لايغشاها اللبس او الغموض، او لتكون هذه المعلومات منطلقا في اشادة البنيان التاريخي المتين بكافة أبعاده ومستلزماته ، وجميع ما أحاط به من ظروف في الداخل والخارج أدت في نهاية المطاف الى اعطائه الشكل الذي اتخذه ، والذي كان لابد وان يتخذه .

وليس بخاف ان السبيل الأول في الدراسة التاريخية ، سبيل تجاوزه الزمن ، ولم يعد الباحث المحدث مجرد منسق لما في مصادره من روايات حول الحادثة موضوع اهتمامه يعرضها أمام قارئه وكأنه يقول له : اليك ما وجدت والمسؤولية على من قال . وكما انه من الطبيعي الا تكون الصعوبات والثغرات في المعلومات التي يصادفها الباحث في تاريخنا العربي الاسلامي واحدة ، فانه من الطبيعي ايضا ان تكون لكل باحث اهتماماته التي يحاول ان يعطيها نصيبا أكبر من جهده في البحث .

من هذا المنطلق في المنهج أردنا ان يكون حديثنا عن انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول الكريم صلوات الله عليه ، لا عرضاً لاحداث واخبار

يجدها كل من يستطيع الوصول الى المصادر الأولية التي تتناول الموضوع بالبحث ، ولكن محاولة في طرح بعض الملاحظات والمنطلقات التي نعتقد انها أساسية في هذه الدراسة التي تقصد الى ازاحة بعض الغبار عما نسيه الذين سبق وكتبوا في هذا الأمر والى التذكير ببعض الملابسات والظروف التي اعطت امر انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول المسار الذي اتبعه، والى اجلاء بعض ما في الروايات من غموض أو تناقض أو الاشارة الى ما لم نستطع ان نكشف ستره أو نصل فيه الى جواب .

ان ماهو متعارف عليه من امر انتشار الاسلام في شرق الجزيرة العربية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة عالمية الدعوة اذ ان رسالة محمد بن عبد الله (هي للناس كافة) وليس لفئة أو شعب أو امة . ويفرض هذا الا تكون خطى الرسول في هذا السبيل متعجلة ، اذ لا بد له من السير صعداً فيبدأ بعشيرته الاقربين ، وينتقل الى من يليهم في القربى والدار حتى يصل الى اطراف الجزيرة وما يليها من امم ودول . كما أنه من الطبيعي الا يبدا دعوته خارج الحجاز الا بعد استقامة عود دولته الفتية التي اقامها في يثرب التي غدت عاصمة الدولة الجديدة ومنطلق نشاطاتها في كافة الميادين . وتحدد المصادر (كأبن سعد ، وابن هشام ، والطبري ، وابن حبيب ... وسواهم) . موعداً لهذا النوع من النشاط انصراف الرسول من الحديبية. وفي طبقات ابن سعد فصل خاص يحدثنا فيه عن رسل محمد ابن عبد الله بعد منصرفه من الحديبية الى ملوك وامراء الدول المجاورة والكتب التي حملوها اليهم ممهورة بخاتم الرسول ، والاجوبة التي عادوا بها . وعندي أن هذا الذي يقوله ابن سعد وتوافقه عليه بعض المصادر يحتاج الى شيء من التدقيق . لان مايذكره ابن سعد في طبقاته (جـ١ ، ص٢٥٨ ومابعدها) يبدو وكأنه عملية خطط لها تخطيطاً مسبقاً وحدد زمانها ورجالها ومهمة كل منهم قبل خروجه صلوات الله عليه الى الحديبية . ففي نص ابن سعد مايلي : « ... قالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ارسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتباً .. فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم ... » وواضح من هذا النص أن الفاصل الزمني بين عودة الرسول من الحديبية وانطلاق الرسل الستة لايتجاوز بضعة أيام (نهاية ذي الحجة

سنة ٦ ، بداية المحرم سنة ٧) . وامر كهذا لايهيأ في أيام قليلة ، اذا صح النص ، ولاسيما ان كل رسول ارسل الى قوم أصبح « يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم » وهذا أيضاً أمر لايتم بين يوم وليلة .

ومن مقارنة هذه الرواية برواية مماثلة عند الطبري نجد أن ابن سعد قد ادخل جزءاً من الرواية الاصلية بجزء تال فخرجت روايته مشوهة اذ ان الرواية الأصلية التي تتحدث عن بعث الرسول لهؤلاء الستة تذكر أن الرسول جمع اصحابه وقال لهم : « اني بُعثت رحمة وكافة فأدوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى ابن مريم . قالوا : يارسول الله ، وكيف كان اختلافهم ؟ قال : دعا الى مثل مادعوتكم اليه ، فأما من قرب به فأحب وسلم ، واما من بعد به فكره وأبى ، فشكا ذلك منهم عيسى الى الله عز وجل فأصبحوا من ليلتهم تلك ، وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث اليهم . فقال عيسى : هذا أمر قد عزم الله لكم عليه ، فامضوا » .

ثم يتابع الطبري حديثه فيقول : « قال ابن اسحق : ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فبعث سليط بن عمرو ... وعمرو ابن العاص الى جيفر بن جلندى وعباد ابن جلندى الازديين صاحبي عمان .... » (الطبري ج ٢ ، ص ٦٤٥) .

وواضح من كل ذلك أن مايذكره ابن سعد من أن كل واحد من مبعوثي الرسول الستة « اصبح يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم » هو خلط بين ماجاء عن حواري عيسى في الرواية الاصلية وما ادعاه ابن سعد خطأ عن مبعوثي الرسول الستة. يضاف الى ذلك ان ذكر عمرو بن العاص بين موفدي الرسول الستة الى الملوك والامراء أمر لايستقيم والحقائق الثابتة ، لأن عمرواً لم يسلم الا سنة ثمان ، ولا يعقل أن يرسل وهو على الشرك ليدعو الى الاسلام . هذا فضلا عن انه اذا كان النص صحيحاً فالأمر يعني دونما شك أيضاً ان الإعداد لهؤلاء الرسل كان قبل التوجه الى الحديبية. ولست اشك بأن الظروف الداخلية لدولة الرسول في هذه الفترة السابقة للحديبية لم تكن تسمح له بأن يخطط لفتح حوار وجبهات خارج حدود الجزيرة وفي اطرافها في فترة لم تكن حتى الحجاز قد دانت له بشكل تام . ولهذا كله يظل في رايي ان مايقوله الطبري من ان رسول الله قد ارسل رسله الى ملوك العرب والعجم فيما بين الحديبية ووفاته ، هو القول الأصح ، لأن فيه من

الواقعية والدقة مايتناسب والوضع الداخلي لدولة المدينة (انظر الطبري جـ ٢ ، ص ٦٤٥) .

وايا كان فلست اريد هنا ان اناقش كامل محتوى نص ابن سعد هذا فقد قمت بذلك في موضع آخر (انظر كتابنا : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول . دمشق ١٩٦٩ ، ص ٥٣٧ وما بعدها) ولكني اريد القول أن منطلقاً أساسياً من منطلقات دراستنا لانتشار الاسلام زمن الرسول لابد وان يكون التلازم بين الظروف الداخلية لدولة المدينة والمراحل التي قطعتها الدعوة الى الاسلام داخل الحجاز وخارجه ، والأوضاع في المناطق التي وجه الرسول اليها الدعاة . وبذا تنتفي فكرة الزمن المحدد سلفا لانطلاق هؤلاء الدعاة التي يطرحها ابن سعد ، كما ينتفي أنهم انطلقوا في وقت واحد الى مختلف الجهات . وينقلنا هذا الى وجوب تحديد مواقع القبائل التي وجدت زمن الدعوة الى الاسلام بالنسبة لمكة والمدينة من جهة ، والى استقصاء موعد تماسها الأول مع الاسلام من جهة اخرى .

انتشار الاسلام في شرق الجزيرة :

ولما كان بحثنا مقصورا على القبائل التي كانت تنزل فيما نسميه اليوم بالخليج العربي فاننا سنحدد بعض الحقائق الأساسية التي نعتقدانه لابد من اخذها بعين الاعتبار حين نبحث امر انتشار الاسلام بين هذه القبائل بشكل عام وان ننتقل بعد ذلك لاستعراض مانجده في المصادر من اخبار علاقات الرسول الكريم بهذه القبائل وان نحاول عرضها على معايير النقد التاريخي .

وعندي ان الامر الاول الذي لابد من اخذه بعين الاعتبار هو انه لم يكن بين القبائل النازلة في جنوب وشرق الجزيرة العربية وبين الرسول الكريم أي اتصال مهم حتى مابعد فتح مكة ، كما انه لم يكن على راس هذه القبائل زعماء لهم وزنهم في الحياة السياسية العامة للجزيرة ممن يمكن ان يشغل بالهم مايحدث في الحجاز وما قد يكون له من تأثير على زعامتهم أو على تغيير الوجه السياسي للجزيرة ، وبالمقابل ايضاً لابد لنا وان نذكر ان هذا الأمر يصح على موقف الرسول من هذه القبائل فهي بعيدة عن منطقة نفوذه ولاتشكل خطراً مباشرا عليه . واغلب الظن ان قضية عدم وجود زعماء ذوي خطر أو مكانة على رأس هذه القبائل هو جزء من

قضية أعم تتعلق بالتدهور السياسي والسكاني الذي كان يغلب على هذا الجزء من الجزيرة العربية الذي كانت أجزاء منه تقع تحت النفوذ الاجنبي او تتقاسمه مطامع اجنبية ، هذا فضلا عما كان فيه من اخلاط سكانية واديان سنعرض لها فيما بعد . وهكذا فأن اهم ملامح سياسة الرسول تجاه هذه القبائل وهذا الجزء من الجزيرة العربية قبل فتح مكة كان الاسلوب الدبلوماسي (ان صح التعبير) لأن ارسال حملات وبعوث عسكرية كان امرا غير ممكن أو معقول اذا أخذنا بعين الاعتبار القوة العسكرية والوضع الداخلي لدولة الرسول من جهة ، والمرحلة التي تمر بها في صراعها مع قريش الذي كان يهدد وجودها ، والذي لابد من حسمه لصالحها قبل ان تنصرف الى ماعداه من امور تأتي في مرتبة تالية . ويمكن ان نقول بشيء من التأكيد أن هذا الاسلوب الدبلوماسي استمر كاسلوب في التعامل في الفترة القصيرة التالية لفتح مكة ، كما سنرى من خلال مابين أيدينا من نصوص .

ان استعراض مانجده من معلومات حول هذا في فتوح البلدان للبلاذري (ط . الطباع) وتاريخ الطبري (ط . ابو الفضل ابراهيم) والمحبَّر لابن حبيب (ط . ايلزه ليخشنشتنير)وابن سعد(ط. دارصادر) وابن هشام (ط . السقا) وسواها من المصادر يوضح بما لايقبل الشك ان اسلوب البعوث العسكرية الى قبائل منطقة الخليج وجنوب الجزيرة وشرقها بشكل عام لم يستعمل زمن الرسول اطلاقا ، وانه انما استعمل زمن ابي بكر وبعد أن قامت مشكلة الردة . وان ماجرى زمن الرسول كان يدخل ضمن نطاق العمل الدبلوماسي ويتمثل بشكل واحد تتفق عليه جميع المصادر وهو ارسال اشخاص من ذوي الدين والمقدرة على الافصاح والاقناع للدعوة الى الاسلام وشرح تعاليمه وما يستتبع الدخول فيه من حقوق وواجبات . وسأستعمل بعض هذه النصوص التي تفصح عن هذه الحقيقة لاناقش محتواها ، لا من هذه الزاوية فحسب ، بل من بعض الزوايا الاخرى التي تثير بعض التساؤلات والاشكالات التي لابد من ابرازها أو ايجاد حل معقول لها .

يذكر البلاذري في فتوح البلدان في حديثه عن فتح عمان مايلي :«كان الأغلبين على عمان الازدُ ، وكان بها من غيرهم بشر كثير في البوادي ، فلما كانت سنة ٨ بعث رسول الله (صلعم) أبا زيد الأنصاري أحد الخزرج وهو

أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبعث عمرو بن العاص السهمي الى عبد وجَيْفَر ابني الجُلَنْدِي (خطأو صحيحه الجُلَنْدَى) بكتاب منه يدعوهما فيه الى الاسلام . وقال : ان أجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن . فلما قدم ابو زيد وعمرو عمان وجدا عبداً وجيفراً بصُحار على ساحل البحر فاوصلا كتاب النبي (صلعم) اليهما فأسلما ، ودعوا العرب هناك الى الاسلام فأجابوا اليه ورغبوا فيه ، فلم يزل عمرو وأبو زيد بعمان حتى قبض النبي . ويقال ان أبا زيد قدم المدينة قبل ذلك » (ص ١٠٣ — ١٠٤) ويقول الطبري حول الموضوع نفسه وبعد حديثه عن فتح مكة : « وفيها (أي سنة ثمان للهجرة) بعث رسول الله (صلعم) عمرو بن العاص الى جيفر وعمرو ابني الجلندى من الازد مصدقاً ، فخليا بينه وبين الصدقة ، فأخذ الصدقة من اغنيائهم وردها على فقرائهم ، وأخذ الجزية من المجوس الذين بها ، وهم كانوا أهل البلد ، والعرب كانوا يكونون حولها . » (ج٣ ، ص ٩٥) . ويذكر البلاذري في موضع آخر رواية أخرى عن الموضوع نفسه يقول فيها : « وقد قال قوم : ان رسول الله (صلعم) كان وجه أبا زيد بكتابه الى عبد وجيفر ابني الجلندى الأزديين سنة ٦ ، ووجه عمرواً في سنة ٨ بعد اسلامه بقليل .. وإن رسول الله (صلعم) قال لابي زيد خذ الصدقة من المسلمين والجزية من المجوس . » . (ص ١٠٥ — ١٠٦) .

ويتضح من دراسة هذه النصوص ان الرسول لم يرسل الى عمان سوى شخصين وان مهمتهما كانت الدعوة الى الاسلام وشرح مبادئه وتعليم الناس القرآن وتطبيق تعاليمه فأطاع من أطاع وخالف من خالف . وان من أطاع من العرب دفع الصدقة ، ومن اطاع من المجوس دفع الجزية وان ماتجمع من مال الاغنياء رد على الفقراء . وان هذا الامر كان سنة ثمان للهجرة ، لأن عمرواً لم يسلم الا في تلك السنة . وهذا مايدحض الزعم الذي نجده في رواية ابن سعد التي أشرنا اليها آنفا والتي تقول ان رسل وبعوث الرسول الى الملوك والامراء قد انطلقت بعد صلح الحديبية ، اي حين كانت مدن الحجاز كمكة والطائف ماتزال على الشرك ، وقبائل نجد تهدد بالانقضاض عليه، وهذا ما لا يستقيم امام المنطق أو ما في الروايات من اخبار . ولابد لنا من التنبيه بأن هذه الروايات تشير بوضوح الى وجود

عناصر سكانية مختلفة في عمان في هذه الفترة بينهم العرب والمجوس . وان المجوس كانوا اهل البلد ، والعرب كانوا يكونون حولها . وان الفريقين لم يدينا بدين واحد ، وان ردود فعلهما تجاه الاسلام كانت مختلفة. وهذا امر سنعود للتعليق عليه بشكل اوسع فيما يلي من بحثنا . كما علينا ان نلاحظ ان ماطلبه الرسول من مبعوثيه كان مقصورا على أن يقبل القوم الاجابة الى شهادة الحق واطاعة الله والرسول . واذا تم ذلك ، فأبو زيد باعتباره الصحابي القديم ومن حفظة القرآن ، فهو المسؤول عن الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن ، أما عمرو وهو الذي لم يمض على اسلامه الا بضعة اشهر ، ولكنه الاداري المحنك ، فهو الأمير وواضح من كل ذلك ان مهمة الرجلين كما حددها الرسول كانت مهمة متواضعة تعتمد الاقناع لا الاجبار ، وترضى بما يقبله أهل عمان وتستبعد اكراههم على ما لا يرضون . وليس من شك في أن توقيت بعثة أبي زيد وعمرو بن العاص من الامور التي تدل على سعة افق الرسول الكريم وبعد نظره . فقد اتت بعد فتح المسلمين مكة . ولفتح مكة ما له من دوي بين العرب ، الذين كانوا يعرفون مالهذا البلد من اهمية وما لقريش من نفوذ، فحين تدين مكة وقريش لمحمد ، فلا شك انه ذو مكانة وجاه ، وان قهره مكة واخضاعه سادتها من قريش لدليل ساطع على قوته ونفوذه وصدق رسالته . ولم تكن هذه السياسة الحكيمة التي تأخذ بادق اعتبارالظروف الداخلية لدولة الاسلام واوضاعالقبائل التي يرسل اليها الرسول مبعوثيه للدعوة الى الاسلام قاصرة على منطقة الخليج فحسب ، بل كانت أسلوبه في التعامل مع جميع القبائل التي تنأى ديارها عن دياره ويريد لها أن تدين بالاسلام ، ودولته لم يشتد عودها بعد وتتهددها اخطار خارجية عديدة اهمها الخطر الذي تمثله بيزنطة على حدود الجزيرة في الشمال وفارس على حدود الجزيرة في الشرق وعبر الخليج . فقد كان صلوات اللهعليه فيبعض لظروف يقنعه اسلام فئة من قبيلة ما ، وأن تبقى فئات اخرى فيها غير مسلمة ، ولا يثنيه هذا عن تنظيم امور هذه الفئة المسلمة ، بانتظار انيعم الاسلام بقية القبيلة . فابن سعد مثلا يحدثنا عن كتاب الرسول الكريمالى قيس بن سلمة بن شراحيل من قبيلة جعفي من اليمن الذي يقول له فيه : « إني استعملتك على مُران ومواليها وحَريم ومواليها ، والكِلاب ومواليها من اقام الصلاة وآتى الزكاة وصدّق ماله وصفّاه » (ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٣٢٥) . ومعروف انمران وحَريم والكِلاب بطون من جُعفي، فجعفي

لم تسلم بكاملها ، بل اسلم أفراد من بعض بطونها واستعمل الرسول قيس ابن سلمة على « من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصدّق ماله وصفّاه » ، أي على من قبل منهم بتعاليم الاسلام . ومصادرنا حافلة بأمثلة شبيهة اتخذ فيها الرسول مواقف مماثلة ، مما لانرى ضرورة لتعداده . ويوصلنا كل ذلك الى إثبات حقيقتين اساسيتين في موضوع انتشار الاسلام في الخليج هما :

١ ـ ان الدعوة للاسلام في الخليج لم تأخذ شكلا منظما الا بعد فتح مكة وهذا لاينفي طبعا ان يكون ذكر الاسلام قد سرى في تلك المنطقة قبل ذلك وان أفراداً أو جماعات صغيرة قد دخلت فيه وآمنت برسالة نبيه .

٢ ـ لم يستعمل الرسول اسلوب البعوث العسكرية في دعوته الى الاسلام في تلك المنطقة ، وان رسله اليها كانوا من ذوي الباع العريض في الدين ومن ذوي الخبرة في ادارة الامور ، كما ان الرسول استعمل مايمكن أن نسميه في لغة عصرنا بسياسة الخطوة خطوة التي تهدف الى ايجاد نواة للاسلام بين القبائل النازلة هناك، ومن ثم اتاحة الفرصة للاسلام كدين وكنظام في الحياة أن يثبت وجوده وقدرته على النماء واكتساب الانصار ، عن طريق القدرة الذاتية . وطبيعي أن هذا الاسلوب فرض نفسه على الرسول صلوات الله عليه اذا ما أخذنا بعين الاعتبار العوامل المختلفة والطابع الخاص للوضع البشري والجغرافي في تلك المنطقة .

ويتبين هذا الذي ذكرناه بشكل أكثر وضوحاً ودقة اذا ماتطرقنا لموضوع انتشار الاسلام بين القبائل النازلة في شرق الجزيرة وفي ماكان يطلق عليه اسم البحرين ، كما ترويه لنا المصادر المختلفة . واذا أخذنا بالتوزع الجغرافي للقبائل لوجدنا أننا اذا بدأنا بجنوب شرقي الجزيرة واتجهنا شمالا فان اولى القبائل التي لابد للتوقف عندها والحديث عنها هي قبيلة مَهْرَة بمكان يقال له جَيروت وعليه زعيم اسمه شخريت (من بني شخراة ، فرع من مهرة) وقسم يمثل الغالبية عليهم زعيم يقال له المُصَبِّح (من بني محارب ، فرع آخر من مهرة) (انظر ، الطبري جـ ٣، ص ٣١٦ ـ ٣١٧) . ويبدو أن الاسلام انتشر بين اقلية ضئيلة من الجماعة التي يرأسها شخريت الذي مالبث ان ارتد ، أما القسم الاخر الذي يرأسه المُصَبِّح « والناس كلهم معه ، الا ماكان من شخريت » (الطبري، جـ ٣، ص ٣١٧) فقد رفضوا الاسلام وظلوا كذلك حتى كانت خلافة ابي بكر

فخرج عكرمة في جنده نحومهرة واقتحم عليها بلادها ،ودعا شخريت والقلة التي كانت قد آمنت وارتدت أن يرجعوا الى الاسلام ، فأجابه شخريت واستطاع عكرمة ان ينتصر على المُصَبِّح وان يجبره ومن معه من جموع مهرة على الانصياع . ويوضح هذا الذي يذكره لنا الطبري ، وسواه من المؤرخين ان مهرة ، وهي التي تسكن الجنوب الشرقي من الجزيرة وتمتد ديارها على النجد ورياض الروضة ، وساحل الخليج وبعض جزره ، ومنطقة ينعب وذات الخيم وسواها ، لم يصلها الاسلام الا في اخريات حياة الرسول صلوات الله عليه ، ولم يكن له فيها آنذاك اي وجود قوي . وظل حالها كذلك حتى كانت خلافة أبي بكر . ويبدو ان السبب الرئيسي لذلك هو بعد ديار مهرة عن المدينة وقلة مابينهما من صلات . كما يبدو ان اسلام الفئة القليلة من مهرة تم في عام الوفود ، اذ يذكر ابن سعد في طبقاته خبرا عن شخص من مهرة اسمه زهير بن قِرضِم وفد الى رسول الله في ذلك العام وهو من منطقة الشحر التي كانت تنزلها فروع من مهرة ، « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنيه ويكرمه لبعد مسافته ، فلما اراد الانصراف ثبته وحمله وكتب له كتابا » (ابن سعد،جـ ١ ، ص ٣٥٥) وقول ابن سعد هذا دليل آخر على صدق ماذهبنا اليه من أن سبب عدم انتشار الاسلام في تلك المناطق كان بعدها عن المدينة ، وان الرسول أراد ان يكرم المهري هذا بشكل خاص فحمله بالهدايا كما ذُكر ابن سعد .

واذا ماانتقلنا الى قبيلة الازد التي كانت بعض بطونها تنزل فيعمان والتي أسلفنا الحديث عنها لوجدنا ان مشكلة البعد الجغرافي عن المدينة هي المنطلق الاساسي الذي لابد من أخذه بعين الاعتبار حين نتحدث عن موضوع انتشار الاسلام بين بعض افرادها مع فارق واحد هو أن وضع بطون الازد التي كانت تنزل منطقة عمان قد سهل مهمة مبعوثي الرسول، اذ يبدو أن ازد عمان لم يكونوا جبهة واحدة ، يحكمهم زعيم أو شيخ واحد يدينون له بالطاعة . ويبدو أن جيفرا واخاه عبدا (أو عباداً) كانا يتزعمان الفئة من الازد التي تقيم « بصحار على ساحل البحر . » (اي الخليج) (فتوح ، البلاذري ، ص ١٠٤) ، وانهما انما قبلا الاسلام لظروف داخلية او ربما كانا هما اللذين اتصلا بالرسول بسبب هذه الظروف الداخلية (Watt - Muh. at Medina, ed. 1956, p. 131) علهمايجدان في الاسلام نصيراً لهما على أعدائهما من بقية بطون الازد المجوس الذين كانوا يساكنونهم . ويدّعى وات (Ibid - Loc. cit.) ان منطقة عمان كانت تمر في هذه

الفترة بمرحلة من الاضطرابات الاجتماعية ، وان هذا الوضع الداخلي هو الذي حدا بجيفر وعباد ان يستنجدا بالاسلام . على ان وات لايقدم اي حجة مقبولة لدعم وجهة النظر هذه ، ويذهب الى القول انه ربما كان السبب في ذلك الاضطراب الوضع المتردي الذي كانت تعاني منه فارس في هذه المرحلة من تاريخها . ورغم ان وات لم يقدم بين يدي فرضيته مايدعمها فإنا نرى ان في ادعائه شيئا من صحة . ولتوضيح وجهة نظرنا هذه لابد لنا من ان نذكر ببعض الحقائق عن الوضع الدولي آنذاك وصلات منطقة الخليج بفارس من جهة ، ومن جهة ثانية لابد لنا من العودة الى النصوص التي بين ايدينا والتي تتحدث عن التركيب السكاني لمنطقة عمان وما كان فيها من عرب ومجوس .

ولا بد لتوضيح النقطة الاولى من هذه النقاط الثلاث وهي قضية الوضع الدولي في هذه المرحلة ان نذكر ان فارس وبيزنطة كانتا منذ ان تسلم الامبراطور البيزنطي هيراكليوس عرش بيزنطة في صراع على السطلة استنفذ قوى الطرفين . ولكن الضربات المتلاحقة التي انزلتها بيزنطة بفارس منذ سنة ٦٢٣ م/٢ هـ كانت قد اضعفت فارس الى حد كبير . وقد استطاع هيراكليوس بعد ان صد الهجوم الآفاري على عاصمته سنة ٦٢٦ م/٥ هـ ان يوجه همه ويحشد قواه لضرب الفرس ضربة قاصمة . وفي خريف سنة ٦٢٧ م/٦ هـ سار هيراكليوس بجيوشه لمهاجمة العاصمة الفارسية . وفي كانون الاول عام ٦٢٧ م كان الامبراطور البيزنطي على ابواب نينوى . وفي هذا الموقع خاض الطرفان معركة كبيرة قررت مصير الصراع بين فارس وبيزنطة . فقد قضى البيزنطيون تقريبا على الجيش الفارسي وسجلوا نصرا كبيرا على اعدائهم . وتابع هيراكليوس بعد هذا النصر زحفه فاحتل في مطلع سنة ٦٢٨ م/ ٧ هـ مدينة داستفرد Dastagerd المدينة المحببة جدا الى قلب كسرى الفارسي وفر كسرى من المدينة . وفي ربيع سنة ٦٢٨ م / ٧ هـ تطورت الحوادث داخل فارس تطورا جعل القتال امرا لافائدة منه . فقد خلع كسرى وقتل ، واجلس على العرش ابنه كافاذرشيرو Kavad - Shiro (قباذ) . وعقد كسرى الجديد معاهدة مع البيزنطيين قبل فيها بما املوه عليه من شروط . وبنتيجة

هذه المعاهدة ضمنت بيزنطة عودة ماكان يخصها من أراض : كارمينية والجزء البيزنطي من منطقة مابين النهرين وسورية ومصر ، التي عادت للتبعية البيزنطية ، كما كان الحال في السابق . وبعد شهور قليلة ، وحين كان قباذ على فراش موته ، عين الامبراطور البيزنطي وصياً على ولده الصغير ، وهكذا انقلب الحال ، فبعد ان كان كسرى يدعو هيراكليوس بعبده ، أعلن قباذ ان هيراكليوس هو سيد ابنه وسيد فارس. وعاد هيراكليوس بعد هذه الانتصارات الى عاصمته تتوجه اكاليل الغار ليستريح قليلا ثم عاد الى القدس ، ووسط مظاهر احتفال مهيب أعاد نصب الصليب المقدس الذي كان الفرس في حروب سابقة قد نهبوه ، واضفى بذلك صبغة دينية على حروبه ضد فارس . (من اجل العلاقات بين فارس وبيزنطة (انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري ، ط . دمشق ١٩٧٠ ص ٨٩ ـ ٩٢) .

وهكذا فقد كان لهذا الانكسار الشنيع امام بيزنطة وللبلبلة الداخلية وما نجم عنها من سقوط حكم كسرى وقيام حكم كسرى آخر ، ووقوف فارس من بيزنطة موقف التابع من السيد ، الامر الذي توضحه وصية قباذ بأن يكون هيراكليوس الوصي على ابنه وولي عهده ، وعودة النفوذ البيزنطي الى منطقة مابين النهرين المتاخمة لمنطقة الخليج التي نحن بصدد الحديث عنها ، كلها من الامور التي لعبت دونما شك دورا حاسما في اضعاف النفوذ الفارسي في هذه المنطقة التي تنزلها قبائل عربية تدين بالولاء والسيادة لفارس من جهة ، كما تسكنها عناصر فارسية بينها وبين القبائل العربية نزاعات وصراعات . وقد يكون هذا الذي قدمناه مبررا لما أشار اليه وات واسماه Social unrest دون ان يقدم له مايبرره . كما اننا نستطيع ان نجد المبرر لهذا الاضطراب الاجتماعي في الضعف السياسي لدولة فارس الذي شرحنا بعضا من ظروفه فيما سلف . اما فيما يتعلق بالتركيب السكاني لهذه المنطقة ، فاننا نلاحظ ان المصادر تشير الى نوعين من السكان في منطقة عمان هما : العرب والمجوس ، وان « المجوس كانوا اهل البلد والعرب كانوا يكونون حولها » (الطبري ، جـ ٣ ، ص ٩٥ ، البلاذري ص ١٠٦) وكانت بعثة ابي زيد الانصاري وعمرو بن العاص الى العرب فقط اما المجوس فلم يطلب منهم

سوى دفع الجزية (انظر البلاذري ، ص ١٠٤ والطبري ، جـ ٣ ص ٢٩ ، وابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ وسواها) . وهذا مما يثير الانتباه لان المفروض ان تكون الدعوة للناس كافة وليس للعرب فحسب ، الامر الذي يجعلنا نعتقد ان مهمة ابي زيد وعمرو بن العاص كانت مهمة محدودة من جهة ، او ربما كانت بناء على طلب من جيفر واخيه عباد كما ألمحنا آنفا ، لظروف داخلية كانت تعيشها قبيلة الازد ، لذا اراد هذان الزعيمان ان يثبتا مركزهما بدعم من الرسول الذي كان قد فرغ لتوه من فتح مكة واخضع قريش وفشا ذكره بين قبائل العرب كزعيم لايقهر ، الى جانب ما له من صفة النبوة . وقد يؤكد زعمنا هذا ان المصادر تجمع على بقاء عمرو وابي زيد في عمان الى ان قبض الرسول فعادا الى المدينة (انظر البلاذري ، ص ١٠٤ ، الطبري جـ ٣ ، ص ٢٥٨، ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٢٦٣) . وبقاؤهما في عمان حتى موت الرسول كان لدعم مركز جيفر وعباد اللذين يمثلان الجهة المؤيدة للرسول ضد الحزب المعادي والذي كان يتزعمه لقيط بن مالك الملقب بذي التاج . ويبدو ان جيفرا وعبادا كانا يتزعمان منطقة صحار في حين ان لقيطا كان يتزعم منطقة دبا وهي كما يقول الطبري « المصر والسوق العظمى » (جـ ٣ ، ص ٣١٥) ، الامر الذي يوضح ضعف مركز الفئة المسلمة التي كانت تسيطر على رقعة صغيرة هي منطقة صحار المتاخمة للبحر ، في حين ان الفئة التي كانت يتزعمها لقيط كانت تسيطر على الرقعة الاعظم والاهم . وطبيعي ان يظل جيفر وعباد على اسلامهما حتى كانت الردة ، وان يساعدا جيوش ابي بكر التي انطلقت لقتال المرتدين وكان النصر لهما على عدوهما لقيط . على انه لابد لنا من الاشارة . ونحن في هذا الجزء من بحثنا الى مافي المصادر من اضطراب في الروايات تثير قلق الباحث وتساؤلاته التي لايجد لها جوابا . ففي الطبري رواية وحيدة لانستطيع تبين ماذا كان راويها هو الواقدي او ابن اسحق تقول ان الرسول بعث سنة ثمان للهجرة « عمرو بن العاص ألى جيفر وعمرو ابني الجلندى من الازد مصدقا ، فخليا بينه وبين الصدقة ... » (الطبري ، جـ ٣ ، ص ٩٥) . وهذه هي المرة الوحيدة التي نسمع فيها باسم عمرو بن الجلندى ، اذ ان كل الروايات الاخرى تتحدث عن عبد أو عباد ابن الجلندى اخي جيفر . وامر آخر يثير الانتباه والتساؤل حول

الموضوع نفسه هو مانقراه في الطبري أيضا واثناء حديثه عن احداث سنة ١١ هـ وهو قوله : « حدثني السري ، قال حدثنا شعيب ، عن سيف عن الحجاج عن عمرو بن شعيب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص الى جيفر ، منصرفه من حجة الوداع ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو بعمان ... » -(الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٥٨) . ولسنا نعرف ماذا كانت بعثة عمرو هذه بعثة ثانية الى جيفر ، اذ ان حجة الوداع كما هو معروف حدثت سنة عشر للهجرة ، في حين ان جميع المصادر الاخرى تجمع على ان بعثة عمرو الى جيفر وعباد كانت سنة ثمان وان عمرواً بقي في عمان حتى وفاة الرسول . وفي مكان ثالث ينقل لنا الطبري خبرا عن ابن اسحق يسمي فيه مبعوثي الرسول الى القبائل العربية والملوك الاجانب بمبعوثيه الى « ملوك الخائنين » (الطبري ، جـ ٢ ، ص ٦٤٥) . وليس في سياق الخبر مايفهم منه ماذا كانت هذه التسمية هي صفة اطلقها راوي الخبر على هؤلاء الملوك ، أم ان الرسول نعتهم بذلك . واغلب الظن ان هذا الوصف من وضع راوي الخبر ، وليس من كلام الرسول ، وانه وصف متأخر لان الراوية المسلم اعتبرهم خونة لموقفهم من الاسلام الدين الحق الذي لابد وان يقبل به كل الناس ، ومن لايقبل به فهو خائن حتما . وهذه ليست الا امثلة قليلة على مايجده الباحث في المصادر من اضطراب في الروايات وتساؤلات لايجد لها جوابا مباشرا مقبولا .

اما اذا انتقلنا الى موضوع انتشار الاسلام بين القبائل التي كانت تنزل في ما يسمى بالبحرين فاننا نلاحظ ان الوجود الاسلامي في هذه المنطقة (البحرين) كان اوضح مما كان عليه في منطقة عمان . وكانت تنزل البحرين قبائل عربية عديدة أهمها : قبيلة عبد القيس وهي صاحبة الكثرة والعدد ، وفيها بعض من بكر بن وائل وتميم وسواها . وكانت أرض البحرين ، على ما يذكر البلاذري (الفتوح ، ص ١٠٦) ، تتبع مملكة الفرس ، وكان يسكنها الى جانب العرب اخلاط من الفرس والمجوس واليهود والنصارى ، ويبدو ان القبائل العربية كانت تنزل البوادي ، وان المجوس والنصارى واليهود كانوا ينزلون الحواضر (انظر البلاذري ، ص ١٠٧) ويبدو ان التبعية للفرس من جهة ، والتركيب السكاني المختلط من جهة اخرى كانا من اهم العوامل التي دفعت بعض عرب البحرين للاتصال بالرسول علهم يجدوا في

الاسلام خلاصا مما هم فيه من حكم اجنبي لارضهم واخلاط بشرية تزحم ديارهم وتخبط عقائدي يجعلهم في صراع بين مجوسية ونصرانية ويهودية ووثنية . ويفهم من رواية يذكرها ابن سعد ان صلة الرسول بعرب البحرين كانت قبل فتح مكة . وان اول وفد من بكر بن وائل زار المدينة واقام حوارا مع محمد كان عام الفتح (انظر ابن سعد ، ج ١ ، ص ٣١٤) . وكان بين رجالات هذا الوفد من هم على النصرانية (المصدر السابق ، ص ٣١٥) فأسلموا وحسن اسلامهم ، مما يدل على وجود عرب نصارى بين قبائل شرقي الجزيرة والخليج قبل الاسلام . كما ان بعضهم فارق قومه وباع ماله وجاء الى المدينة مسلما وملتجئا الى الرسول لينجو من الحال المتردية التي آلت اليها البحرين في هذه الفترة . (انظر ابن سعد ، ج ١ ، ص ٣١٥) . على ان مانجده من معلومات في مصادرنا عن البحرين وسكانها قليل ولا يلقى ضوءا كافيا على حالها السياسية والبشرية والاحداث الداخلية التي قامت فيها قبل الاسلام وفي فترة تنزل الوحي على الرسول الامين . على انه يمكن القول بشيء من التأكيد ان البحرين كانت منذ حكم اردشير منطقة صراع فارسي عربي وان عرب البحرين قبل حكم أردشير كانوا من القوة بحيث تطلعوا الى تحرير عرب العراق من النير الفارسي (انظر الطبري ، جـ ١ ، ص ٦٠٩ ، ـ ٦١١) لاسيما وان فارس قبل اردشير كانت تمر بمرحلة من التمزق والضعف بسبب من اوضاعها وانقساماتها الداخلية من جهة ، وبسبب صراعها مع بيزنطة كما بينا آنفا من جهة اخرى . كما ان تاريخ عرب البحرين مع حكام فارس تاريخ حافل بالدماء . ففي عهد سابور ذي الاكتاف حين كانت بلاد العرب ، على مايقول الطبري : « ادنى البلاد الى فارس ، وكانوا (أي الفرس) من احوج الامم الى تناول شيء من معايشهم وبلادهم لسوء حالهم وشظف عيشهم ، فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى اناخوا على إبرشهر وسواحل اردشير خُرّة وآسية ففارس ، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ومعايشهم واكثروا الفساد في تلك البلاد فمكثوا على ذلك من امرهم حينا . . . » (الطبري ، جـ ٢ ص ٥٥) .

ولما بلغ سابور السادسة عشرة من عمره « انتخب الف فارس من

صناديد جنده وابطالهم وتقدم اليهم في المضي لامره ، ونهاهم عن الابقاء على من لقوا من العرب ، والعرجة على اصابة مال ، ثم سار بهم فأوقع بمن انتجع بلاد فارس من العرب وهم غارّون ، وقتل منهم ابرح القتل وأسر اعنف الاسر ، وهرب بقيتهم ، ثم قطع البحر في اصحابه ، فورد الخط ، واستقرى بلاد البحرين يقتل اهلها ولا يقبل فداء ، ولا يعرج على غنيمة . ثم مضى على وجهه ، فورد هجر ، وبها اناس من اعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس . فأفشى فيهم القتل . وسفك فيهم من الدماء سفكا سالت كسيل المطر ، حتى كان الهارب منهم يرى انه لن ينجيه منه غار في جبل ولا جزيرة في بحر ، ثم عطف الى بلاد عبد القيس فأباد اهلها الا من هرب منهم فلحق بالرمال ، ثم اتى اليمامة فقتل بها مثل تلك المقتلة ، ولم يمر بماء من مياه العرب الا عوّره (١) ولا جب من جبابهم إلا طمّه » .. (الطبري ، ح ٢ ، ص ٥٧)

وهذا الوصف لعلاقات فارس مع منطقة البحرين ومالقيت هذه المنطقة من ظلم وجور وتقتيل وتشريد على يد الفرس قد يكون فيه التفسير لبعض ما ذكرناه عن حال البحرين إبان انتشار الاسلام في الجزيرة . وفيه الجواب على سكنى القبائل العربية للبوادي وترك الحواضر لاخلاط السكان من غير العرب . كما ان فيه الجواب على محاولات عرب البحرين المبكرة للاتصال بالرسول الأمين علهم يجدون في ظل الاسلام الملاذ مما آلت اليه حالهم من ترد وانهيار . على انه تظل هناك أمور غامضة لانجد في مصادرنا جواباً شافياً لها . ومن ذلك مثلا قضية العلاقة بين من كانوا يسكنون منطقة هجر من الاعراب ومن كانوا يسكنون البحرين ولماذا تتحدث المصادر عن جهود الرسول في نشر الاسلام بين عرب هجر وعرب البحرين معا وضمن فصل واحد . فابن سعد مثلا يتحدث في فقرتين متلاحقتين عن رسالة الرسول الكريم الى صاحب « البحرين » ورسالته الى « صاحب » هجر (ابن سعد ، ح١ ، ص ٢٧٥) . والبلاذري يتحدث عن بعث الرسول للعلاء الحضرمي ليدعو اهل البحرين واهل هجر الى الاسلام او الجزية (البلاذري ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧) . فهل كانت هناك من رابطة او صلة خاصة بين هجر والبحرين ؟ ام هل الأمر صدفة ودونما سبب ؟ اغلب الظن أن التفسير الممكن هو ان عرب كلا المنطقتين كانوا يخضعون للسيطرة الفارسية وان المقصود بصاحب البحرين

---

(١) عوره : (اي طمه وكبسه بالتراب) .

أو صاحب هجر هو الحاكم الفارسي على عرب هذه المنطقة أو تلك . على ان الذي يظل دونما حل هو ماتجمع عليه المصادر من أن حاكـم البحرين من قبل الفرس زمن الرسول كان المنذر بن ساوى وهو الذي وجـه اليه الرسول مبعوثه العلاء بن الحضرمي سنة ثمان للهجرة يدعوه وصحبه الى الاسلام ، إلا ابن سعد الذي ينفرد بذكر حديث عن كتاب ارسله الرسول الى شخص اسمه الهلال ويصفه بأنه كان صاحب البحرين (ابن سعد ، جا ، ص ٢٧٥) ويطلب اليه فيه أن يعبد الله وحده وان يؤمن بالله ويطيع ويدخل في الجماعة . دون أن يبين لنا شيئاً عن اخبار الهلال هذا ولا منطقة حكمه ولا نوعية صلته بالمنذر بن ساوى . وقد يكون من الممكن ان الهلال هذا لم يكن « صاحب » البحرين بمعنى حاكمها ، بل كان وجها بارزاً من وجهائها ، ظل على الشرك واراد الرسول صلوات الله عليــه ان يرغبه في الاسلام ويضمه اليه .

ويبدو مما تذكره المصادر أن بعثة العلاء بن الحضرمي الى البحرين لاقت قبولا بين عدد كبير من العرب سكان البوادي « اما اهل الارض مـن المجوس واليهود والنصارى فانهم صالحوا العلاء » على الجزية اذ أخـذ من كل حاكم دينارا (البلاذري ، ص ١٠٧) ولم تكن الاستجابة لدعـوة العلاء عرب البحرين وهجر الى الاسلام استجابة شاملة . اذ يذكر العلاء ذلك ويقول : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البحرين ، او قال هجر . وكنت آتي الحائط بين الاخوة قد اسلم بعضهم فأخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج » ، (البلاذري ، ص ١٠٨) الأمر الذي يوضح ان بعضهم قبل الاسلام ، وبعضهم ظل على الشرك ولم يؤد ذلك الى اصدار الرسول امره بقتال من لم يسلم من اهل البحرين ، اذ يقول البلاذري انه « لم يكن بالبحرين أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال ، ولكـن بعضهم اسلم ، وبعضهم صالح العلاء على انصاف الحب والتمر » (البلاذري ، ص ١٨) الأمر الذي يؤكد ماذهبنا اليه في مطلع بحثنا من أن الرسول في هذه المرحلة من دعوته وفي هذا الجزء من الجزيرة العربية استعمل الاسلوب الدبلوماسي والدعائي في الدعوة الى الاسلام . ولم يأخذ بأسلوب القوة سبيلا لنشر دين الله . وقد حدد الرسول في أحد كتبه الى المنذر بن ساوى من هو المسلم وما يترتب عليه ، ومن هو غير المسلم وما يترتب عليه ، اذ يقول له : من محمد النبي الى المنذر بن ساوى : سلم انت ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد ، فان كتابك جاءني وسمعت مافيــه ، فمـن صلى

صلاتنا ، واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم . ومن أبى ذلك فعليه الجزية » (البلاذري ، ص ١١٠) . ويبدو أن العلاء بن الحضرمي لم يكن داعية فحسب ، بل كان مفوض الرسول الاداري في منطقة البحرين وهجر اذ مالبث بعد انتشار الاسلام بين فئة من عرب هذه المنطقة أن أخذ الزكاة ممن أسلم والجزية من المجوس واليهود وارسل ماتجمع لديه من مال وهو ثمانين الفاً الى الرسول ، ماأتاه أكثر منه قبله ولابعده . ويبدو ان الرسول عزل العلاء عن ولاية البحرين في اخريات حياته وولاها أبان بن سعيد بن العاص بن امية الذي ظل يليها حتى وفاة الرسول .وعاد أبان الى المدينة بعد وفاة الرسول ، وطلب أهل البحرين من أبي بكر أن يرد العلاء عليهم ففعل . (البلاذري ، ص ١١١) . ويفهم من نص يورده البلاذري أن كسرى كان قد نقل جماعة من الفرس واسكنهم هجر فيما عرف باسم « وضائع كسرى » وحاول العلاء أن يدخلهم في الاسلام ، ولكنهم رفضوا ، فأخذ منهم الجزية (البلاذري ، ص ١١١) . وتكمن أهمية النص فيما يتضمنه من اشارة الى عمليات نقل سكان متعمدة من الارض الفارسية الى الارض العربية . ويبدو من الشرح الذي يورده ابن منظور لكلمة « وضائع » التي وردت في نص البلاذري آنف الذكر ، التي يشرحها ابن منظور بقوله : « الوضائع والوضيعة : قوم كان كسرى ينقلهم من أرضهم فيسكنهم ارضا اخرى حتى يصيروا بها وضيعة ابدا ، وهم الشحن والمسالح » . نقول يبدو من هذا الشرح أن عمليات نقل عناصر بشرية فارسية واسكانها في مناطق حدود فارس مع البلاد الاخرى كانت من الأساليب التي تلجأ اليها فارس لتثبيت وجودها السياسي والعسكري في المناطق التي كانت لها فيها مطامع أو تخشى انتفاضها عليها ورفض سيطرتها ، وهذا الوجود البشري الغريب وما يكون قد مارسه من تسلط وارهاب ، كان من بين الاسباب التي جعلت عرب البحرين وهجر يهرعون الى المدينة علهم يجدوا في ظل دولتها خلاصاً مما هم فيه من حال يائسة وتسلط اجنبي ، على أن قضية الاسلام في البحرين زمن الرسول مرت في خلال السنتين اللتين تلتا فتح مكة وحتى وفاته صلوات الله عليه ببعض الصعوبات والازمات . وقد بلغت هذه الصعوبات ذروتها بوفاة المنذر بن ساوى التي جرت في نفس الفترة التي انتقل فيها الرسول الى جوار ربه أيضاً . وكانت أهم مظاهرها ضعف الحزب المسلم في البحرين وهجر بسبب وجود عدد من الزعماء القبليين المعادين للاسلام في المناطق التي تقع بين البحرين والمدينة

ساعدوا على ضرب الفئة المسلمة في البحرين وعدم تمكينها من اقامة امارة اسلامية هناك . وكانت بوادر امكانية اقامة مثل هذه الامارة قد ظهرت منذ أيام العلاء بن الحضرمي الذي استطاع جباية الزكاة والجزية ممن تبع الاسلام او دخل في ذمة المسلمين من بقية العناصر السكانية كما اسلفنا . ولم يتأت للاسلام أن يمتن جذوره في هذه المنطقة كسواها الا بعد انتهاء محنة الردة بنصر مؤزر للاسلام في كافة بقاع الجزيرة ، اتاح لعرب الجزيرة المسلمين ان يتدفقوا كسيل هادر ليرفع رايات الاسلام على مختلف بقاع الارض .

بعد هذا العرض لاهم النصوص والروايات والاخبار التي نجدها في مصادرنا حول موضوع انتشار الاسلام زمن الرسول في منطقة الخليج ، ودراستها دراسة نقدية واستخلاص بعض المؤشرات التي توضح الخطوط العامة والاساسية لسياسة الرسول الكريم في نشر الاسلام في الجزيرة العربية بشكل عام وفي منطقة الخليج بشكل خاص . لابد لنا وان ننتقل لنناقش مايدعيه بعض المستشرقين المحدثين من ان الرسول الكريم كان يهدف من وراء ارسال بعوثه الى جنوب الجزيرة العربية وشرقها أهدافاً سياسية أكثر منها دينية وانه كان يسعى لاقامة تحالفات سياسية بينه وبين رؤساء القبائل النازلة في تلك المناطق اكثر مما كان يهدف الى نشر الاسلام. ويضيفون الى ادعائهم هذا أن مانجده في كتبه الى الامراء ورؤساء القبائل من حض على اقامة شعائر الدين ودفع الزكاة قد يكون مما اضافه الرواة المتأخرون لأنهم اعتقدوا أن سيرة حياة الرسول والاهداف التي كان يسعى اليها لابد ان اقتضت منه أن تتضمن كتبه مثل هذه العبارات . (انظر : Watt - Muh. At Medina, p. 125) .

ان هذا الزعم زعم غريب وخطير ، فهو غريب لانه لم يبن على اية حقيقة أو نص او رواية تاريخية . وهو خطير لأنه يحاول أن يجرد دعوة الرسول من محتواها الديني وينقلها من دعوة لنشر الاسلام الى دعوة لاقامة دولة محمد . والشق الأول من نقاشنا لهذا الامر الذي بنيناه على عدم وجود نصوص او روايات تؤيد هذا الزعم ، يظل ناقصا اذا لم يثبت العكس وهو ان كل النصوص والروايات سواء مااستعملناه منها اثناء نقاشنا لموضوع انتشار الاسلام في شرقي الجزيرة والخليج ، أو مالم نتعرض له وهو كثير كثير ، يصر على عكس ذلك وهو أن الهدف الأساسي لبعوث محمد الى هذه القبائل وتلك المناطق كان حضها على الدخول في الاسلام كما ان

جميع مانجده في مابين ايدينا من مصادر حول موضوع الوفود التي قصدت المدينة في عام الوفود ومادار بينها وبين الرسول من نقاش واحاديث كان محوره الدعوة الى الاسلام والحض على التمسك بمبادئه واوامره ونواهيه واظهار الشدة المتناهية في تطبيق تعاليمه ومبادئه . ولم يأت فيه ذكر لسياسة أو تحالف سياسي او ماشابه . ولعل أفضل مثل يمكن أن نورده على ذلك هو النقاش الذي جرى بين الرسول الكريم وبين وفد قبيلة جعفي من أجل قضية دينية صغيرة ، وموقف الرسول الصلب من مبادىء الاسلام ونواهيه . يذكر ابن سعد أن قبيلة جعفي كانت تحرم أكل القلب في الجاهلية وان وفداً منهم وفد عليه صلوات الله عليه فيه رجلان منهم هما قيس بن سلمة بن شراحيل الجعفي واخوه سلمة بن يزيد الجعفي ، وهما اخوان لام فسألهما الرسول : « بلغني انكم لاتأكلون القلب ؟ قالا : نعم . قال : فانه لايكتمل اسلامكم الا بأكله ، ودعا لهما بقلب فشوي ، ثم ناوله سلمة ابن يزيد ، فلما أخذه أرعدت يده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كله ، فأكله . . . ثم قالا : يارسول الله ان أمنا مليكه بنت الحلو كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين ، وانها ماتت وقد وأدت بنية لها صغيرة فما حالها ؟ قال ، الوائدة والموؤدة في النار ، فقاما مغضبين، فقال: إلي فارجعا فقال : وامي مع امكما ، فأبيا ومضيا وهما يقولان : والله ان رجلا اطعمنا القلب ، وزعم أن امنا في النار لأهل لان لا يتبع وذهبا . . . فبلغ ذلك النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فلعنهما فيمن كان يلعن . . . » (ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥) . ان انسانا لايقبل التنازل عن اي مبدأ من مبادىء دين الله مهما كان صغيرا كأكل القلب ومصير الوائدة والمؤودة ، ولو ادى ذلك الى غضب زعيمي قبيلة كبيرة كقبيلة جعفي ورفضهما الاسلام لايمكن أن تنزع عن دعوته الصفة الدينية وتبرز فيها الواجهة السياسية . هذا فضلا عن أن في مصادرنا تأكيداً لايرقى اليه شك على أوامره لمبعوثيه بهدم أصنام القبائل التي بعثوا اليها والتأكيد على تعاليم الاسلام وارشاد الناس الى ادق تفاصيل الدين ، لايحتاج الأمر هنا الى ذكر المصادر ومافيها من روايات حول هذا الامر فهي أكثر من أن تذكر في هامش .

أما الأمر الثاني وهو ماذكرناه من أن هذا الاتهام يحاول أن يجرد دعوة الرسول من محتواها الديني وينقلها من دعوة لنشر الاسلام الى دعوة

لاقامة دولة محمد فتبيان خطأه ومجافاتــه للصواب امـــر يعود السوء فهم المستشرقين الذين قدموا لقرائهم هذا الزعم ، لطبيعــة الدولة في الاسلام وصلة الدولة بالدين سواء أكان ذلك عن عمد ، أو لجهل وتقصير في فهم الصلة بين الدين والدولة في الاسلام ، ولست أراني بحاجة لأن أخــوض مفصلا في موضوع المبادىء وتأكيد حقيقــة ان الدين والدولــة في الاسلام متلازمان ومترابطان ترابطاً عضويا ومصيريا لأن الدين هو الاساس الذي تقوم عليه الدولة الاسلامية ، ولان الفارق الاساسي بين الاسلام والمسيحية هو انه في المسيحية هناك مؤسستان منفصلتان لارابطة بينهما في الاساس هما : الدولة والكنيسة . وان الدولــة في المسيحية كانت موجودة قبــل الدين ، ثم جاء الدين كمؤسســة مستقلة بعد صدور مرسوم ميلانــو سنة ٣١٢ من قبل قسطنطين الكبير الذي اعترف بالمسيحية دينــا شرعيا بين اديان الامبراطورية الرومانيـــة فنشأت الكنيسة كمؤسسة مستقلة ، ثم مالبث أن قام تزاحم على السلطة بين الاباطرة البيزنطيين وبطاركة كنيسة القسطنطينية وتغلب الاباطـرة في هــذا الصراع واعتبروا انفسهم سادة الكنيسة أول الامر ، ولكن حين قبل شارلمان بأن يأخذ تاج الامبراطوريــة من يد بابا روما « ليون الثالث » الذي وضع تاج الامبراطورية على راس شارل الكبير (شارلمان) في كنيسة القديس بطرس في روما يوم الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ٨٠٠ للميلاد بدات مرحلة جديدة فيالعلاقة بين الكنيسة والدولةوظهرت مدرسةفي التفكير السياسي في الامبراطوريات المسيحية تقبل سيادة الكنيسة على الدولة . على أن هذه المدرسة لمتكن وليدة قناعة أو انتصار فكرة على فكــرة ، ولكنها كانت نتيجــة لظروف الصراع السياسي بين شقي الامبراطورية الرومانية الشرقي والغربي .كما انها كانت وليدة الصراع بين بابا روما وبطريرك القسطنطينية اللذين كان كل منهما يحاول اظهار تفوقه وزعامته ازاء خصمه .

وطبيعي انه ليس من اهداف هــذا البحث ان ندخــل في تفاصيل موضوع نظام الحكم في الاسلام والمسيحية والمقارنة بينهما وانما سقنا هذا الذي ذكرناه لنقول من خلالهانه بخلاف ماكانتعليه الحال فيالامبراطوريات المسيحية ، كان الدين عماداً الدولة محمد في المدينة وان كل تحرك سياسي قام به كان لايهدف الى استمرار الدولة لانها دولته ، ولكن لانها الدولة التي تعتمد الاسلام نظاما وتأخذ على عاتقها نشره وتقويته وتعميمرسالته.

ومن هذا المنطلق يمكننا ان نفهم جهود الرسول لنشر الاسلام خارج حدود الجزيرة ، وكتبه للملوك والامراء خارج الجزيرة وتحركاته السياسية والعسكرية في مناطق الحدود التي كان بعضها يجاور منطقة نفوذ سياسي بيزنطي ، وبعضها يجاور منطقة نفوذ فارسي ، والاولويات التي كانت قوام سياسته في نشر الاسلام خارج حدود الجزيرة والتي اعتمدت أساساً لها الاخطار التي قد تتعرض لها دولة الاسلام . ولعل أهم هذه الاولويات في سياسة الرسول الخارجية كانت شعوره بعظم الخطر الخارجي الذي تمثله بيزنطة التي خرجت منتصرة في حروبها مع الفرس كما شرحنا انفا . واستطاعت ان تسترد ولاء العديد من القبائل العربية التي كانت تنزل على حدوده الشمالية بين الحجاز والشام لذا نراه يحاول في تلك الجبهة الا يكتفي بالبعوث والرسل بل يرسل قوات عسكرية تستطلع وتناوش وتقدر قوة العدو . ومن هذا القبيل يمكننا ان نذكر غزوة تبوك التي أمر فيها الرسول الناس بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في ذي الحجة الى رجب من السنة التاسعة للهجرة ، والتي يذكر الواقدي في حديثه عن اسبابها ان جماعة من الانباط يسميهم بـ « الساقطة » كانوا منذ الجاهلية يقدمون الى المدينة بالدقيق والزيت ليبيعونها لأهلها ، واستمروا على ذلك بعد تنزل الاسلام على قلب الرسول الامين .

وكان الرسول بعد هجرته الى المدينة يتلقى منهم اخبار الشام وما يجري فيها وما يهيأ ضده من قبل حكامها البيزنطيين . وهكذا كانت كما يقول الواقدي : « اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط » . (الواقدي ط مارسدن جونس ، جـ ٣ ، ص ٩٨٩ وما بعدها) وصادف ان قدم جماعة من هؤلاء الساقطة من الشام الى المدينة بتجارتهم ، واخبروا الرسول ان الروم قد جمعت جموعا كثيرة في الشام . وان هرقل قد أعطى جنده ارزاق سنة كاملة مسبقا ليستثير حميتهم لقتال المسلمين . وانه ضم الى جيشه جماعات كثيرة من قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة وغيرها من قبائل الشام . كما ابلغوه ان هذه الجماعات قد زحفت الى البلقاء وعسكرت فيها بانتظار المسير الى المدينة لحرب الرسول . وقد دعا كل ذلك الرسول صلوات الله عليه ان يرأس بنفسه الجيش الذي اطلق عليه اسم جيش العسرة لظروف يعرفها الجميع وسار به الى تبوك حيث اقام مايقارب العشرين ليلة دون ان يدخل في قتال مع هرقل الذي كان في حمص انذاك . وليس يهمنا ان ندخل في تفاصيل

غزوة تبوك هذه ، ولكنا اردنا من التذكير بها ان نظهر الفرق بين مواقف الرسول في قضية الدعوة الى الاسلام ، بين شمال الجزيرة حيث يكمن خطر عاجل اضطره لاستعمال اسلوب القوة، وشرق الجزيرة أو جنوبها حيث كانت فارس في حال من الضعف والتردي ، وحيث كانت القبائل التـي وقعت تحت سيطرتها تتحين الفرص للخلاص منها .

فالامر اذن سواء في الشمال او الشرق لم يكن امر عقد محالفـات سياسية بقدر ما كان اختلافا في التكتيك اقتضته طبيعة الوضع السياسي والبشري والقوى المحلية والاجنبية ومالها من نفوذ في المنطقة التي يريـد الرسول ان يدعو الناس فيها بدعوة الاسلام . واذا اخذنا بالاضافة الـى كل ما ذكر ان الثورة العربية على الحكم الفارسي قد اطلت برأسها منـذ الجاهلية القريبة من الاسلام حين قامت موقعة ذي قار وما تحقق فيهـا للعرب من انتصار لوجدنا ان اسلوب الدبلوماسية الهادئة ، ان جـاز التعبير ، كان الاسلوب الذي يوفر للرسول ما اراده من اثبات للوجـود الاسلامي في شرقي الجزيرة وقرب سواحل الخليج دون ان يضطر لاستخدام القوة العسكرية التي قد تجبره ظروفه لاستخدامها في الشمال حيث يقيم الخطر البيزنطي على مسافة قصيرة من حدوده واستخدمها فعلا في غزوة تبوك كما المحنا . ثم ماكان بعده البعث أسامة بن زيد الذي لم يتـح له ان ينفذه لان المنية عاجلته . كما أنه لابد من التنبيه الى الفارق في معاملة الرسول لمسيحيي الشمال ومسيحيي الجنوب والشرق. فماهو في المصادر حول هذا الموضوع يظهر للقارىء وكأنه كان للرسول موقفان مختلفان من المسيحيين العرب ؛ موقف متسامح مع مسيحيي جنوب وشرق الجزيـرة ، وموقف متشدد مع مسيحيي شمال الجزيرة . وانه مع الفئة الاولى كان متسامحا يقبل منهم الجزية . ولا يتشدد في اجبارهم على الاسلام . في حين انـه كان لا يقبل من مسيحيي الشمال الا الاسلام او السيف . ولعل التفسير المعقول لهذه الظاهرة ان صدقت او كان هناك ما يدعمها دعما كامـلا فيما بين ايدينا من مصادر ، هو ان مسيحيي الجنوب والشرق لم يكونوا مرتبطين بقوة سياسية اجنبية تدعمهم بل هم بقايا العرب الذين اعتنقوا المسيحية ابان الغزو الحبشي او نتيجة لبعض عمليات التبشير . امـا الذين اعتنقوا المسيحية من القبائل التي كانت تنزل شمال الحجاز وعلى تخوم بلاد الشام . فقد كانوا مرتبطين بقوة سياسية خارجية هـي الامبراطورية البيزنطية التي كانت تستخدمهم كأدوات لها في ضـرب

القوة العربية التي بدأت تنمو في الحجاز وتستقطب ولاء القبائل العربية المختلفة ، الامر الذي قد يؤدي الى الاضرار البالغ بمصالح بيزنطةالتجارية من جهة ، ويهدد نفوذها في هذه البقعة من العالم . واذا اردنا ان نجمل بعض الملاحظات التي تبدو للباحث في موضوع انتشار الاسلام في منطقة الخليج زمن الرسول ، وان نحدد بعض الظروف والاجواء والمنطلقات التي واكبت عملية انتشار الاسلام في هذا الجزء من الجزيرة لوجدنا انه لابد لنا من ان نأخذ ما يلي بعين الاعتبار :

اولا : ان معنى كلمة « انتشار الاسلام » معنى نسبي ، وليس ضروريا ان تعنى كلمة « انتشار الاسلام » في مجال البحث الذي قدمناه السيطرة الكاملة والتامة للاسلام على الرقعة من الارض التي كانت موضع حديثنا . ان قضية مدى نفوذ الرسول في الجزيرة العربية وقضية الايمان التام والكامل بالاسلام كدين وكنظام للحياة والجماعة قضيتان مختلفتان من حيث المدى الجغرافي . ففي حين انه يمكننا القول بشيء كثير من صدق ودقة انه منذ عام الوفود وحتى وفاته صلوات الله عليه ، كانت غالبيةعرب الجزيرة في شمالها وجنوبها وشرقها وغربها تدين بالولاء للرسول شخصيا وتقر بزعامته وسيادته وتعتبره سيد الجزيرة بلا منازع . كان الاسلام كدين لا يملك السيطرة التامة والكاملة الا على القبائل التي تنزل بين مكة والمدينة وبعض القبائل الاخرى . اما بقية القبائل الضاربة في ارض الجزيرة العربية ، فقد كان فيها مسلمون وكان فيها وجود للاسلام ولكن لم يكن الاسلام السيد الذي لاينازع او الدين الذي يعتنقه جميع الناس ولايعارضه أي معارض .

ثانيا : ان قضية الردة هي الكاشف الحقيقي والمعيار الذي نستطيع من خلاله ان نحكم على مدى انتشار الاسلام في قبيلة او منطقة ما . وبالرغم من انه لا يقع ضمن حدود هذه الدراسة التعرض لموضوع الردة، الا انه يمكننا القول ان هذه الحركة قد اوضحت بما لا يقبل الشك ان الاسلام كان قلعة صامدة في بعض المناطق وعند بعض القبائل ، وكان وجودا ضعيفا بين قبائل أخرى . ولعل اهم ماتكشف عنه الردة هو ان الاسلام كان بالنسبة للبعض حلقة في مسلسل التسلط السياسي والمالي القرشي الذي تعود جذوره لما قبل الاسلام . حتى ان الطبري يقول : « ان العرب بعد وفاة الرسول ارتدت عوام او خواص الا قريشا وثقيفا» . (الطبري ، جـ ٣ ، ص ٢٤٢) .

وبالرغم مما في هذا الكلام من مبالغة ، ومن انه ليس من حدود هذه الدراسة كما اشرنا ، بحث الموضوع الردة ودلالاتها وما يمكن ان تشير اليه، فان قضية رفض السلطة القرشية تتمثل في اكثر من مجال من مجالات موضوع الردة . وقد عبر عنها خير تعبير الشاعر خطيل بن اوس اخي الحطيئة (او الحطيئة) على قول اخر (انظر الاغاني ، ط دار الكتب ، جـ ٢ ، ص ١٥٧) حين قال :

اطعنا رسول الله ماكان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

ايورثها بكرا اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

هذا فضلا عن الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة والذين تنبأوا وادعوا الوحي او فهموا الدين فهما غير تام ولا عميق . الامر الذي يوضح ان انتشار الاسلام زمن الرسول الكريم كان يعني عند العديد من القبائل والافراد قبول النفوذ السياسي للرسول من جهة ، وممارسة بعض طقوس الاسلام من جهة اخر . واذا اخذنا بعين الاعتبار قصر الفترة التي مضت بين اعتناق بعض القبائل والافراد الاسلام وبين وفاة الرسول لتوضح لنا ان ماندعيه من انه لم يكن للاسلام خارج الحجاز زمن الرسول نفس الوجود القوى الذي كان له داخل الحجاز ولا سيما بين القبائل التي كانت تنزل بين مكة والمدينة . ولست اريد ان اصل الى حد القول بان البعض كان يرى فيه بضاعة قرشية ، ولكن لابد من التأكيد على الدور الكبير الذي لعبه ابو بكر في تثبيت الاسلام في الجزيرة والخدمة الجلى التي أداها للاسلام بنتيجة الموقف الصلب الذي وقفه في وجه من ارتد او فرق بين صلاة وزكاة .

ثالثاً : ولابد من ان نورد في هذه الملاحظات التي اردناها خلاصة لهذا البحث ان امر انتشار الاسلام في شرقي الجزيرة والخليج زمن الرسول قد تأثر بعدة امور اهمها :

آ ـ قضية البعد الجغرافي بين المدينة وبين هذه المناطق والمسافة الشاسعة التي تفصل بينهما، وماادى اليه ذلك من تأخر انتشار الاسلام فيها.

ب ـ اعتماد الرسول اسلوب البعوث والدعاة والذكر . والموعظة الحسنة ، وعدم اللجوء الى القوة او الدعم العسكري . وقد اوضحنا

سبب ذلك آنفا وبينا الاولويات التي اعتمدها الرسول في سياسته لنشر الاسلام داخل الجزيرة وخارجها .

ج ـ اعتماد الدعوة الى الاسلام بين قبائل هذه المنطقة على ماكان فيها من تناقضات وخلافات وفئات وتنازع على الزعامات والاكتفاء في هذه المرحلة بتثبيت وجود اسلامي مننوع ما، دون الالحاح على سيادة الاسلام لظروف داخل دولة الاسلام وبين القبائل شرحناها فيما سلف ، وكان هذا الاسلوب جزءاً من السياسة العامة التي اتبعها الرسول في نشر الاسلام والتي كانت تقوم على اساس الدبلوماسية والمراسلة والحجة والاقناع والاستفادة من الظروف دون اللجوء الى عرض العضلات أو المظاهرات العسكرية ، لأن الاسلام لم يهدف الى قسر الناس على التسليم به ، بل الوصول الى قناعتهم النابعة من ايمان بالقلب وممارسة بالفعل والانتظام في ظل دولة تقوم على اساس من تعاليمه .

د ـ قضية الاخلاط البشرية التي كانت تسكن هذه المنطقة من الجزيرة من جهة،ووجود اديان موحدة وغير موحدةذات جذور وارتباطات سياسية خارجية ، فرضت على الرسول اتباع سياسة في الدعوة الى الاسلام تختلف عن السياسة التي اتبعها مبعوثوه الى القبائل والمناطق الاخرى .

هـ ـ ادى كل ذلك الى ان نحى الرسول الكريم في دعوته الىالاسلام في هذا الجزء من الجزيرة العربية منحى عقد اتفاقات لها صبغة دينية وسياسية معا . وذلك إما عن طريق مبعوثيه الى هذه القبائل ، أو عن طريق الوفود التي جاءت منها اليه في المدينة . وقد أوضحنا ذلكفيحديثنا عن الاتفاقات التي عقدها مبعوثوه أو المطالب التي ضمنها رسائله الىزعماء هذه القبائل أو فيما ذكرناه عن وفودها اليه والمفاوضات التي جرت بينها وبينه وما كتب لها من عهود وكتب أمان .

رابعاً : لابد من ربط موضوع انتشار الاسلام في شرقي الجزيرة بعامة ومنطقة الخليج بخاصة ، بموضوع الوضع السياسي والعسكري لفارس في هذه المرحلة من تاريخها وذلك على ضوء صراعها مع بيزنطة وما اصابها بنتيجة هذا الصراع من ضعفوتدهور في وضعها الداخلي منجهة، وعلى ضوء التحرك العربي العام المضاد لفارس منذ فترة ماقبل الاسلام

منذ ان كانت متسلطة على العراق وشرقي الجزيرة عامة واستيقاظ الوعي القومي العربي الذي توجته معركة ذي قار من جهة اخرى . ويقودنا كل هذا الى اقرار مبدأ التلازم بين الاسلام والعروبة واعتبار الاسلام السند الاساسي للعروبة وملجأها الامين . وقد جاءت الاحداث بعد ذلك التؤيد هذا الزعم حين كانت حركة الفتوح التي لايمكن ان نفصل فيها البعدالديني عن البعد القومي .

خامساً : يلاحظ الباحث لموضوع انتشار الاسلام زمن الرسول عامة انه كان له صلوات الله عليه موقف مــن نصارى جنوب شرقـــي الجزيرة يختلف عن موقفه من نصارى الشمال . وهذا الموقف ناجم كما أوضحنا من الارتباطات السياسية لكلا الفريقين : ففي حين كان نصارى الجنوب والشرق يعيشون في ظل نظــام سياسي غير نصراني وبالتالــي لايمكن أن يكونوا عملاء لهذا النظام الذي تمثله فئة المجوس ، كان نصارى الشمال الركيزة الاساسيةللوجود السياسيالبيزنطي .وهذا في راينا يفسر امرين: اولهما ــ الاختلاف في الموقف الديني من كــلا الفئتين وسماحه لنصارى الجنوب والشرق بالبقاء على دينهم على ان يدفعوا الجزية ، وعدم موافقته على مثل ذلك الأمر بالنسبة لنصارى الشمال الامر الذي يتبدى في كتبــه الى ملوك وامراء وزعماء كلا المنطقتين وعدم الحاحه في الاولى على اسلام من كان على النصرانية أو سواها واختار البقاء على دينه ، اذ لاعليه سوى ان يدفع الجزية . اما نصارى الشمال فكان عليهــم أن يسلموا اذا كانوا عربا ، أو على الأقل الا يعمدوا أولادهم بالنصرانية . وثانيهما ــ قضيــة البعوث العسكرية التي سيرها الرسول الى القبائل المسيحية النازلـــة في حدوده الشمالية (مؤتة ، تبوك ، بعث اسامة بن زيد) ، والتي لانجد لها مثيلا بالنسبة للجنوب والشرق .

وطبيعي ان يكون من مبررات هذه البعوث أيضا أن الوجودالمسيحي بين العرب النازلين في حدوده الشمالية كان قويا في حين انه لم تكن الحال كذلك بالنسبة للقلة من المسيحيين الذين كانوا في الجنوب والشرق .

وبعد ، فهذه بعض الامور والملاحظاتالتي اردتعرضها حول موضوع انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول صلوات الله عليه ، وأرجو إن لـم اكن قد وفيتها حقها او وفقت في عرضها ، أن تكون فاتحة دراسات اخرى تغني هذا الموضوع وتيسر ماغمض علي من جوانبه .

أُصولُ تبايُنِ مَواقِفِ الدُّولِ الأُوربِّيَّة
حِيالَ المسألةِ السّوريّةِ (اللّبنانيّة)
١٨٦٠ ـ ١٨٦١

د . أحمد طربين

استاذ في قسم التاريـخ بجامعة دمشق

نظرت دول اوربا الى قضايا الاقطار العربية باعتبار انها من فروع المسالة الشرقية التي تعني « مسالة اقتسام الاراضي التابعة للامبراطورية العثمانية » ٠

ومعلوم ان هـذه الاقطار العربية التابعة للدولة العثمانية كانت من اهم دواعي التنازع الـدولي الـذي استهل بنزول حمله نابليون بونابرت ارض مصر (١٧٩٨) ومسارعة انكلترا لمسانـدة العثمانيين ضـده الى ان غادرت جيوشه مصر (١٨٠١) ٠ كـذلك كان لحملة محمـد علي على بلاد الشام ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ اثر عميق فيها ، فبعـد ان التزمت فرنسا جانب محمـد علي وانكلترا جانب السلطان كان من الطبيعي ان تجـد دعايات الفرنسيين وتحركاتهم صدى بين الموارنة ، ودعايات الانكليز وتحركاتهـم استجابة بين الـدروز ، مما جعل الموارنة مساعـدين لمحمد علي ، والدروز ثائرين عليه ٠ وانتقل الصراع التقليدي بين فرنسا وانكلترا الى الجبهـة الـداخلية على شكل نزاع بين الموارنة والـدروز ، وبـذلك اضيف عامل جـديد لعوامل المنازعات القديمة ، وغـدا جبل لبنان بعد انسحاب الجيوش المصرية مسرحـا لابشع صور الفتنة الطائفيـة ومثارا للمكائـد الدوليـة (١٨٤٥ ـ ١٨٦٠) ٠ وفي غضون ذلك لم تكن السلطات العثمانية بعيـدة عـن التحريض على حوادث الجبل ، ولاسيما بعد ان امتـدت منها حركة الى دمشق ، لان الحكومة العثمانية لم تقلع عن سياستها التقليـدية وهـي ان تحل المشكلة بان تبيـد اصل المشكلة ، وطبقت هـذه السياسة ايضا في تعاملها مع العصبيات الاخرى في البلقان والاناضول ٠

لقد تحركت الحكومة العثمانية قبل التدخل الدولي ، فأسرعت بارسال محمد فؤاد باشا وزير الخارجية بسلطات استثنائية الى سورية ، وتعمد معاقبة المسؤولين بسرعة وشدة ، فأعدم والي دمشق ونفى عددا كبيرا من اعيانها وشنق عددا اخر . واختص المسلمين ببطشه في مسعى لاذلالهم والقضاء على اعتزازهم ، وفي الوقت نفسه عمل على تحريك الطوائف واثارتها لمنعها من الاتحاد الوطني والمطالبة بتحقيق الاصلاح الجدي وهكذا مضى عهد طويل على حوادث الستين المؤسفة ، واعيان البلاد لا يرتفع لهم رأس . وتدخلت أوربا عسكريا في سورية بارسال حملة فرنسية الى بيروت فجبل لبنان ، اضافة الى تدخلها الديبلوماسي الذي تمثل بارسال لجنة دولية مؤلفة من ممثلي خمس دول اجتمعت في بيروت يوم ٥ تشرين الاول ١٨٦٠ ، وكانت مهامها :

١ ـ البحث في منشأ احداث سورية واسبابها وتحديد مسؤولية كل من زعمائها وانزال القصاص بهم .

٢ ـ تقدير الخسائر وايجاد الوسائل لتخفيف شقاء المنكوبين والتعويض عليهم .

٣ ـ اقتراح ما يجب ادخاله من تعديلات على نظام جبل لبنان الحالي لمنع تجدد الكوارث وتوطيد الامن والطمأنينة في سورية (١) .

وقد مثل الحكومة العثمانية في اللجنة الدولية وزير الخارجية محمد فؤاد باشا ، وناب عن الحكومة البريطانية اللورد دفرين ، وعن الحكومة الفرنسية المسيو بكلار قنصلها العام السابق في بخارست ، وعن الحكومة الروسية المسيو دي نوفيكوف مستشار سفارتها في الآستانة ، وعن الحكومة النمساوية المسيو دي فكبكر قنصلها العام في بيروت ، وعن الحكومة البروسية المسيو دي ريفوس ، سكرتير مفوضيتها في الاستانة . وبما ان خلافات اعضاء اللجنة الدولية كان مصدرها الشك المتبادل الذي كان يعكسه الموقف الدولي في اوربا ، لذلك فليس بد من تصوير موقف كل دولة من الدول الخمس تصويرا موجزا يكفي لادراك دوافع سياستها التي اتخذتها حيال بحث المسألة السورية (اللبنانية) في اجتماعات اللجنة الدولية ، وفي المفاوضات والمؤتمرات الدولية اللاحقة .

---

(١) انظر أحمد طربين « أزمة الحكم في لبنان » دمشق ١٨٦٦ ، ص ١٥٦ .

وفي تناول تيارات السياسة الدولية التي اثرت على مواقف الدول الخمس ، تحسن العودة الى اوائل الثلاثينات ، حين عقد نقولا الاول قيصر روسيا معاهدة خنكار سكله سي مع السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٣٣) ، اعتبرها بالمرستون وزير الخارجية البريطانية آنذاك ضربة عنيفة موجهة اليه • وبالمرستون لم يكن يكره النظام القيصري وانما كان يكره مساحة روسيا الشاسعة وقوتها الضخمة وموقعها الجغرافي الذي يسمح لها بتهديد تركيا وفارس والهند • وزاد في قلق بالمرستون ان روسيا ستعتمد على النمسا في دعم سياستها حيال المسألة الشرقية • ذلك ان مترنيخ المستشار النمساوي كانت تقلقه انباء انتشار الروح القومية الثورية فيدويلات المانيا وايطاليا الشمالية والمجر ، فبدأ يلح على قيصر روسيا وملك بروسيا بضرورة دعم(التحالف المقدس) • وفي اجتماع (منشنغراتز) وعد القيصر بمساعدة مترنيخ على أمل أن لا يعارض مترنيخ في اندفاع الروس نحو الآستانة ، ولكن المستشار النمساوي بدا له ان رغبات القيصر ليست خطرا مميتا بالنسبة لتركيا فحسب ، بل بالنسبة لوجود النمسا نفسها كدولة مستقلة ايضا (١) ولذلك فعندما سأله القيصر عن رأيه في الترك اجابه : « هل يعرض مولاي علي المسألة كطبيب او كوارث ؟! » وادرك القيصر حينئذ ان النمسا ستعارض دائما السياسة الروسية في المسألة الشرقية • وعندما استقالت وزارة الاحرار التي كان بالمرستون وزير خارجيتها ، وحلت محلها وزارة روبرت بيل Peel المعروف بميله للروس ، تصور القيصر ان المسألة التركية امسى حلها قريبا ، وخاصة بعد ان استلم اللورد ابردين وزارة الخارجية وهو المعروف بعدائه للترك . وفي مطلع عام ١٨٣٢ قام القيصر بزيارة رسمية للملكة فيكتوريا ، وتحدث الى ابردين عن (الرجل المريض) وقال انه لا يخشى احدا سوى فرنسا التي يتخوف من ان تطلب الكثير في افريقيا والبحر المتوسط وفي الشرق • وبعد ان لمح القيصر الى خطر المطامع الفرنسية المرتقبة في مصر سورية وفي البحر المتوسط ، اي في المناطق التي لا يمكن لانكلترا ان تسمح بالتفوق الفرنسي ،اتجه الى ابردين واشار الى وجوب تفاهم روسيا وانكلترا سلفا على تقسيم تركة (الرجل المريض) لمقاومة المطامع الفرنسية والنمساوية • واللورد بيل لم يكن يجهل ان القيصر ليس له مطمع في مصر ، بل كان همه

(١) Potiemkine (editeur) « Histoire de la Diplomatie » T. i. P. 416.

يتركز على القسطنطينية والمضائق والافلاق والبغدان . اما الدولة التي تطمع في امتلاك مصر ، فهي فرنسا . وغادر القيصر لندن مسرورا لأنه وجد اناسا اقل صمما من مترنيخ . ولكن فأله خاب لان انكلترا تهربت من ان تعبر عن رضاها بوثيقة مكتوبة .

ان ثورات عام ١٨٤٨ في اوربا اثارت مخاوف القيصر بادىء الامر، بقدر ما فتحت له فيما بعد آفاقا واسعة ليستفيد من موجة الاضطراب التي عمت القارة ، وليستثمر ما سيقدمه من معونة على الاخص للنمسا حيث تدخل لصالحها ضد المجر وضد بروسيا في (اولمتز) على أمل أن تساعده في حل المسألة التركية وفق هواه . الا ان تدخله الذي ساعد النمسا على تحقيق نصر حاسم في المجر والمانيا سيكون له اثره في سرعة انصرافها للاهتمام بشؤون البلقان والوقوف في وجه الزحف الروسي . ولم يدرك القيصر خطأه الا عام ١٨٥٤ ، ولكن لم يكن له بد من التدخل في ثورة المجر خوف انتقال عدواها الى بولونيا ، وخشية قيام حكومة قوية في المجر تهدد مطامع روسيا في البلقان . وكان بالمرستون شديد القلق من ان تنهار النمسا ، وكان يخشى ان تهاجم فرنسا شمالي ايطاليا لطرد النمسويين ، وان يتلو ذلك قيام الروس بابتلاع الشعوب السلافية والاقتراب من القسطنطينية ، ولذا فقد اغتبط كثيرا عندما وقف القيصر الى جانب النمسا ولم يسمح لفرنسا الثورة ان تتوسع . وفي مطلع عام ١٨٥٣ تحدث القيصر مع هاملتون سيمور السفير البريطاني في سان بطرسبرغ ، بشأن تقسيم تركيا ، وعرض عليه مصر وجزيرة كريت مقابل ان توضع الافلاق والبغدان والصرب وبلغاريا تحت الحماية الروسية . وفي ٩ شباط وصله رد جون رسل وزير الخارجية البريطانية وكان سلبيا تماما لان رسل كان كنظيره بالمرستون متشككا في السياسة الروسية الشرقية ، ولم يكن لديه ما يحمله على الاعتقاد بانحلال الدولة العثمانية قريبا .

وهكذا كان أمام القيصر حلان : الاول أن يطوي المشروع ، والثاني ان يلجأ الى القوة ، فيتقدم الى تركيا بمطالب تضمن لروسيا مركزا متفوقا، فاذا رفضت ، اشهر الحرب وحطم تركيا . بيد ان القيصر لو كان يعتقد ان فرنسا والنمسا ستقفان في صف انكلترا دفاعا عن تركيا ، لاختار الحل الاول ، لانه كان يعلم ان انكلترا لا تجرؤ على اعلان الحرب عليه دون ان يكون لها حلفاء .

ولم تكن مسألة المقامات المباركة في فلسطين هي جوهر النزاع الذي شجر بين فرنسا وروسيا ، فقد اعترف دروان دوليز وزير خارجية فرنسا بأنها لم تكن بالنسبة لحكومة الامبراطور الا اداة لتفكيك عرى التحالف القاري الــذي عمل منــذ حوالي نصف قرن على شل حركة فرنسا ، وعندما سنحت الفرصة اخيرا لبث بذور الشقاق في داخل هــذا التحالف القوي ، فالامبراطور عضّ عليها بالنواجذ (١) .

ان مساعي الامبراطور نابليون الثالث الحثيثة لفصل انكلترا والنمسا عن روسيا رافقها شوق شــديد لايجاد مصاعب في الشرق حتى ولو كان خلافا حــول المقامات المباركة ٠ ذلك انه في الشرق تختلف مصالح هــذه الدول مع مصالح القيصر ٠ وبالنسبة للقيصر كانت مسألة المقامات المباركة وسيلة ملائمة وشعبية لخلق نزاع لا مع فرنسا فقط وانما مع تركيا أيضا. وتدريجيا بــدأت هــذه المسألة ترتبط بمزاعم القيصر في حق روسيا بحماية جميع الرعايــا الارثوذكس في الــدولة العثمانية ، وهــذا يعني التــدخل الديبلوماسي في شؤون هذه الدولة . ولسنا بصــدد ذكر بعثة منشيكوف ومناورات السفير البريطاني في الآستانة وايعازه بــرد مطــالب روسيا ، وحسبنا أن نذكر أن الحقد على نيقولا كان عاما في انكلترا وفرنسا على حد سواء ٠ وما من حرب اجتمع لها من تأييدالجماهــير ما اجتمع لهذه الحرب ضد القيصر الذي ركبه الغرور بعــد قمع الحركات الثوريــة عــام ١٨٤٨ واعتقد بتفوق روسيا ، وكان يسرّه ان يتحــدى العالم أجمــع وان يقذف القفاز في وجهه ٠ ونابليون الثالث نفسه وجــد في هــذه الحــرب فرصة لبعث مجــد فرنسا وتغطية تاجه بالغار والفخر (٢) ٠

اما النمسا فمن جهة كانت تسعى لاقناع القيصر بالاتفاق مع تركيا بسرعة والجلاء عن المقاطعتين الدانوبيتين (الافلاق والبغدان) ، ومن جهة اخرى كانت تحاول مساومة انكلترا وفرنسا لتعرف ثمن اتخاذها موقفــا معاديا من روسيا ٠ والنمسا التي كانت تخشى ان يطردها نابليون الثالث من لومبارديا والبندقية ، لم يخف عليها تهديد نابليون لسفيرها فيما لــو وقفت على الحياد ٠

(١) Potiemkine, ibid., P. 434.

(٢) Renouvin « Histoire des Relations Internationales, T. 5. P. 289.

وبروسيا التي تشغل في الاتحاد الجرماني مركزا يلي مركز النمسا ، كان موقفها مختلفا تماما ، فانهيار تركيا ، لا ينتقص من مصالحها الحيوية، في حين انخصومتها معروسيا قد ينجم عنها فيما بعد تحالف فرنسي روسي يؤدي الى سحقها ٠ وتساءلت بروسيا بلسان بسمارك ممثلها في الدييت الاتحادي عن مبرر اتخاذ موقف معاد من روسيا ٠ أوليس كلما ضعفت النمسا قويت بروسيا ، واستقلت في سياستها ومقدراتها ؟ (١) وعندما طال حصار سباستبول كان هم الدولتين منصرفا الى توسيع التحالف واستعداء دول اخرى ضد روسيا ، فتضطر هذه لطلب الصلح وتنهي الحرب ٠ ولما كانت اراضي دولتي النمسا وبروسيا تتاخم حدود روسيا ، فقد أصبح لهما اهمية رئيسية في الغزو السريع ٠

ان جهود روسيا للحصول على حيدة النمسا وبروسيا ، ومساعي انكلترا وفرنسا لجرها الى الحرب ضد روسيا ، كانت بالنسبة لنتيجة الحرب اكثر اهمية من العمليات العسكرية (٢) وقاد الحلفاء معركة ديبلوماسية ضد روسيا فكان النصر حليفهم ، واقترح وزير خارجية النمسا على بروسيا ان تتفق مع النمسا لدعوة القيصر نيقولا الى سحب جنوده من المقاطعتين الدانوبيتين ، ولم يجرؤ ملك بروسيا الذي كان يعاني من ضغط انكلترا وفرنسا ، على الرفض ، وقد غضب القيصر من هذا العمل ، ولكن سخطه على النمسا كان أشد ٠ (٣) واضطر القيصر بعد نزول الحلفاء في (فارنا) ان يسحب جنوده من المقاطعتين الدانوبيتين ، وبرغم سقوط سيباستبول ، فقد رفضت روسيا الصلح ووصل بالمرستون الى رئاسة الوزرة البريطانية في شباط ١٨٥٥ ، ولم يكن تواقا لانهاء الحرب ، الا بعد ان يوجه الى روسيا ضربة قاصمة عن طريق اكتساب حلفاء جدد ضدها ، ودفع نابليون الى تعزيز جيشه ٠ والديبلوماسية البريطانية لم تكن تكتفي بأقل من الاستيلاء على شبه جزيرة القرم اولا وتسليمها الى تركيا ، ثم الاستيلاء على القفقاس واسترجاع جورجيا وجميع القفقاس الجنوبي الشرقي واقامة دولة شركسية تكون تابعة للسلطان وانكلترا ، بقصد ان تكون حاجزا يسد طريق فارس أمام الروس (٤) ٠

---

(١) **Potiemkine, op. cit., pp. 439 - 440.**

(٢) Renouvin, op. cit., P. 293.

(٣) **Potiemkine**, op. cit., P. 447.

(٤) **Ibid., P. 452.**

ولكن نابليون الثالث لم يكن يرغب في مساندة قوة انكلترا لهذه الدرجة ، بل كان يرى ان روسيا تمثل ثقلا نافعا يمكن ان يقلب ميزان انكلترا نفسها ، ويرى ان اراقة الدم الفرنسي في القفقاس لحماية الهند من الغزو الروسي أمر غير مجد لفرنسا ، ولذلك كلف الكونت مورفي Morvy بالاتصال مع روسيا بصفة شخصية .

رحب غورتشاكوف سفير روسيا في فينا بمفاتحة فرنسا ، وقال للرسول ان التقارب المباشر بين روسيا وفرنسا في المستقبل وبعد عقد الصلح ، سيكون امرا مفيدا جدا للبلدين . وارتكب المستشار الروسي نسلرود منذ بداية المفاوضات السرية خطأ أساء الى كل المباحثات ، فقد اعلم فينا بمفاوضاته مع باريس ، وحينئذ ذعرت النمسا وانزعجت من اتفاق روسيا وفرنسا الذي قد يؤدي الى عزلها عزلا خطيرا . وأبلغ وزير الخارجية النمساوية نابليون بأن حكومته مستعدة للانضمام الى الغرب نهائيا ، ولتوجيه ما يشبه الانذار الى روسيا . ونتيجة ذلك سخط نابليون على مسلك نسلرود وقطع المفاوضات . (١)

ومهما يكن الامر ، فقد ضغطت بريطانيا وفرنسا على النمسا لتقوم بمسعى من شأنه ان يرغم القيصر على قبول الصلح ، ولجأتا الى سياسة التهديد والارهاب ، فقد قبلتا التفاوض مع (كافور) رئيس وزراء مملكة سردينيا في ٢٨ كانون الثاني ١٨٥٥ لمساعدته في المسألة الايطالية مقابل ١٥ الف جندي قدمتهم سردينيا للمساهمة في حرب روسيا . وفي الوقت نفسه افهمتا النمسا انهما ستعارضان اي حركة تقوم بها سردينيا في ايطاليا اذا تعهدت النمسا بمساعدة الحلفاء ضد روسيا . (٢) واسرعت النمسا في ١٦ كانون الاول لتوجيه انذار على شكل مقترحات خمسة الى روسيا كان رفضها يعني الحرب . وبعد بضعة ايام تلقى الاسكندر الثاني رسالة من ملك بروسيا كتبت بوحي من امبراطور النمسا ، وكانت رغم رفقها تنطوي على تهديد مباشر ، ودعوة لان يتبصر القيصر جيدا بالعواقب التي ستتعرض لها المصالح الروسية البروسية نفسها اذا رفضت المقترحات النمساوية . وهنا اضطر القيصر للرضوخ ، واتضح له ان النمسا ليست اقل عداء له من انكلترا . وبقي امله معلقا بفرنسا في مؤتمر الصلح المرتقب عقده في باريس .

---

(١) Ibid., P. 453.

(٢) Renouvin, op. cit., P. 296.

افتتح مؤتمر باريس في ٢٥ شباط وانتهى بتوقيع معاهدة باريس في ٣٠ اذار ١٨٥٦ . وفي المؤتمر ركز الكونت اورلوف مندوب روسيا كل اهتمامه للتقرب من الامبراطور نابليون الثالث الذي بادله نفس الاهتمام منذ بداية الاجتماعات • وتحدث اورلوف في اول مقابلة جرت بينهما عن امكان اجراء تقارب وثيق بين روسيا وفرنسا اللتين لا تتعارض مصالحهما كثيرا . والواقع ان نابليون حصل على كل مارغب فيه ، فقد انقذ تركيا من السيطرة الروسية ، واكسب الجيش الفرنسي مجدا جديدا وثار لسنة ١٨١٢ كما استطاع ان يوطد أركان عرشه ويحتل المقام الاول في أوربا • ومن ثم لم يكن لديه بعد ذلك كله مايطلبه من روسيا بعد ان عقد المؤتمر في باريس ولعبت فرنسا لاول مرة بعد عام ١٨١٥ دورا رئيسيا في تصريف الشؤون الدولية • وعرف الكونت اورلوف كيف يستفيد من الفتور الذي كان يتسم به غالبا تأييد فرنسا لحليفتها انكلترا اثناء البحث في فرض بعض القيود الثقيلة على روسيا فكان يتصلب و يرفض التوقيع لانه كان يعلم ان نابليون لا يرغب في متابعة الحرب ، وان انكلترا وحدها لن تتابع الحرب ، كل ذلك بمسرحية بارعة اتقن اخراجها فالفسكي ، وزير خارجية فرنسا ورئيس المؤتمر الذي كان يعرف تماما مشاعر امبراطوره الودية نحو روسيا وممثلها اورلوف •

ومع ذلك فقد كان لهزيمة روسيا في المسالة التركية نتائج هامة اذ خسرت بموجب معاهدة باريس ١٨٥٦ جميع المزايا التي حصلت عليها ابان قرن منذ معاهدة كوجك قينارجي (امتياز حماية الارثوذكس) ومعاهدة ادرنة (النفوذ المتفوق في المقاطعتين الدانوبيتين) • ولكن نتائج حرب القرم امتدت الى ابعد من المسالة الشرقية ، فقد تخلت النمسا تحت ضغط انكلترا وفرنسا عن سياسة التفاهم التي كانت تلتزمها مع روسيا منذ أمد طويل، فحكمت على نفسها بعزلة اضعفتها • اما انكلترا فقد نجحت سياستها في فرض المادة (١١) على روسيا وعلى الدول التي تمتلك سواحل البحر الاسود بخصوص حياد هذا البحر ، اي منع وجود سفن حربية وترسانات بحرية ، الامر الذي حرم روسيا من الوسائل التي كانت تستطيع بواسطتها ان تفتح المضايق وتهدد الدولة العثمانية • وبينما خسرت روسيا بسارابيا ، فان النمسا أُبعدت عن المقاطعتين الدانوبيتين اللتين نالتا استقلالا ذاتيا ضمن السيادة العثمانية، وكانت النمسا ترجو ان لا يقرر المؤتمر اجراء تغيير في وضع هاتين المقاطعتين اللتين تحتلهما جيوشها • ولكن في ٢٧ اذار دعا رئيس المؤتمر فالفسكي فجأة مندوب النمسا ببرود الى احاطة المؤتمر علما بالموعد الذي تحدده

حكومته للجلاء عن القاطعتين · وهكذا غادرت النمسا دون أن تنال من حلفائها ثمن انذارها الحاسم لروسيا · وقد ادرك اورلوف اكثر من مندوب النمسا معنى وجود كافور بين اعضاء المؤتمر · والحق ان كافور حقق كسبا معنويا حينما عرض امام الراي العام الدولي ناحيتين من المسألة الايطالية ، هما الدولة البابوية ، ومملكة نابولي ، وكل ذلك تم بموافقة نابليون الثالث · (١) والواقع انه اتضحت معالم التقارب الروسي الفرنسي في الجو السياسي لاروبا منذ توقيع معاهدة باريس ، هذا على الرغم من اختلاف موقف الدولتين من معالجة (الرجل المريض) ، ففي حين كانت روسيا ترغب في اعادة فتح ملف المسألة الشرقية وتعميم مبدا التدخل لصالح جميع الرعايا المسيحيين في السلطنة ، كانت فرنسا تفضل الاقتصار على المفاوضة بشأن مسيحيي سورية فقط اثناء مباحثات التدخل الدولي في أعقاب حوادث الستين .وفي اجتماعات لجنة بيروت الدولية كان ممثل روسيا يؤيد في معظم الاحيان اراء ممثل فرنسا ، ولكن عندما كانت تعرض مصالح الروم الارثوذكس على بساط البحث ، لم يكن المندوب الروسي يتقيد بهذا الوفاق ، فلا يقبل بأي تنازل ، ولا يؤيد زميله الفرنسي إلا بعد لأي ، وبفتور وتردّد ملحوظين · ولم يهدف في الحقيقة إلا الى خلق المشاكل وايجاد الصعوبات امام الباب العالي ، واثبات ان حالة المسيحيين في السلطنة متدهورة ، وان على الدول الاوربية ان تتدخل جماعيا لدى الباب العالي لتلزمه بتنفيذ تعهدات ما بعد حرب القرم · فكان على انكلترا ان تساعد السلطان العثماني وتدعم مركزه ، لان خطورة مساعي روسيا لم تكن تخفي عليها · فان تدخلها في شؤون المسيحيين في السلطنة وفي شؤون تركيا الداخلية كان يؤدي الى نشوب الاضطرابات والفتن في الولايات العثمانية المختلفة ·

وفي جلسة ٢٨ شباط ١٨٦١ في البرلمان البريطاني ذكر أن البرنس غورتشاكوف وزير خارجية روسيا استوضح بصدد ما نشرته الصحف الاوربية عن دخول فرنسا وروسيا في حلف دفاعي هجومي ، فأجاب البرنس بأنه لا ينكر أنه يمكن أن يوجد تفاهم بين الحكومتين ، ولكن ما يمكن أن يقوله في شأنه أنه لا يتضمن شيئا يضر بمصالح انكلترا (٢)·

(١) Renouvin, op. cit., P. 297.

(٢) Hansard's Parliamentary Debates, vol CL x 1,P. 1093.

ويقابل هذا المحور الفرنسي الروسي ، المحور العثماني البريطاني وكان لا بد ان تصيب هذا المحور هزات طارئة نتيجة ضغط المحور الاول على الاستانة في بعض المسائل · بيد ان موقف الدولة العثمانية رغم خطة التهرب والمواربة التي اتخذتها احيانا عندما كانت تصطدم خطط فرنسا وبريطانيا بعنف ، كان يتسم عموما بالتأييد والتعضيد لحليفتها بريطانيا التي كانت تضطر بين اونة واخرى لاشهار سلاح التهديد والوعيد على تركيا لوقوفها موقفا مترددا ملاينا من السياسة الفرنسية والروسية ·

أما النمسا فكان موقفها يشبه الى حد ما موقف الحكومة العثمانية من انكلترا ، يتحكم فيه من ناحية عداء روسيا لها وحقدها الشديد عليها بعد حرب القرم ، وما تعرفه من نياتها التوسعية في امارات الدانوب وشبه جزيرة البلقان التي يقع بعض أقطارها في دائرة النفوذ النمسوي ، وتتعرض دائما للدسائس والمكائد الروسية · ويتحكم فيه من ناحية اخرى عدم اطمئنانها الى فرنسا حليفة روسيا ، وخاصة بعد المغامرة الايطالية التي اندمج فيها الامبراطور نابليون الثالث ، فساعد مملكة سردينيا على تصفية نفوذ النمسا من دويلات ايطاليا الوسطى التي تحكمها بيوت مالكة موالية للنمسا ، وما فتىء يهدد لومبارديا والبندقية التابعتين لها ، وهدفه اضعاف النمسا الدولة المحافظة التي ترى وجوب التمسك بالوضع الارضي الراهن في أوربا بحسب معاهدات عام ١٨١٥ (١)·

وعلى الرغم من ان السياسة البريطانية في ايطاليا بعد صلح فيلا فرانكا اتسمت بكثير من العطف على الحركة القومية الايطالية ، غير ان النمسا كانت تعلم تماما ان التأييد الديبلوماسي البريطاني لا يستطيع وحده ان يحقق شيئا ذا بال ، وانه يستهدف فقط الحلول محل فرنسا في توجيه مقدرات شبه الجزيرة الايطالية ، للحيلولة دون ارتباط (ايطاليا الموحدة) بفرنسا ·

وانكلترا برغم هذا الدعم الديبلوماسي الذي تعهدت به لرد كل محاولة ثأرية من جانب النمسا ، وبرغم تأييد الصحافة البريطانية للحركة القومية الايطالية ، فانها لم تكن ترغب حقا في ان تتم الوحدة الايطالية التي من شأنها أن تخل بالوضع السائد وفي توازن القوى في البحر

(١) De la Gorce « Histoire du second Empire » III, p. 165.

المتوسط (١) . وكافور نفسه كان يدرك أن التأييد الديبلوماسي البريطاني غير كاف لتأمين سردينيا ضد خطر النمسا ، وان مساعدة فرنسا هي ضرورية لصد هذا الخطر .

يتبين من ذلك ان النمسا كان من مصلحتها ان تنحاز الى محور انكلترا وتركيا في المحافل الدولية الهامة ، لما يوجد بينها وبين المحور المذكور من اتفاق في كثير من الشؤون التي تمس مصالحها . ولذا ستقف ضد محاولات النيل من مبدأ مراعاة سلامة اراضي الدولة العثمانية في الشرق كي تحترم سيادة السلطان في المقاطعات الاوربية البلقانية ضد التدخل الروسي ودسائسه . لدرجة أن المندوب النمسوي أعلن في الجلسة التاسعة التي عقدتها اللجنة الدولية في بيروت ، ان الطريقة الوحيدة الناجعة في اقرار السلم هي تعضيد الحكومة العثمانية في كل انحاء السلطنة بما فيها جبل لبنان . ولكن ظل موقفها من المسيحيين الكاثوليك في الشرق ، هو موقف المؤيد العطوف ما امكن نكاية بفرنسا ، وسعيا لاحتلال مكانها في حمايتهم عندما تحين الفرصة . ومعلوم انه بعد صلح فيلافرانكا عدلت النمسا موقفها المعادي من مسألة شق قناة السويس مسايرة لفرنسا ، واوعزت الى مبعوثها في الآستانة ليساند مباحثات السفير الفرنسي بشأنها ، ولكن مع الحرص على عدم ارغام الباب العالي على التصديق على امتياز القناة ، أو اثارة التعقدات السياسية . (٢) ولكن سرعان ما بدلت النمسا موقفها وتخلت عن تأييد شركة قناة السويس لا لانها ادركت ان دعم فرنسا للشركة يستهدف تأكيد الصبغة الفرنسية لا الدولية للمشروع فحسب ، ولكن ايضا لاسباب نرى انها تتصل بمستقبل نفوذ النمسا في البلقان والدانوب ، وباحتياجها لتأييد بريطانيا لها في هذا الميدان .

---

(١) كتب اللورد رسل وزير الخارجية البريطانية الى الملكة فكتوريا : «حكمت النمسا ايطاليا منذ عام ١٨١٥ حتى ١٨٥٩ فاذا شكا الايطاليون لاسباب معينة من هذا النفوذ النمسوي ، فليس لدى بريطانيا ما يجعلها تخشى من هذا النفوذ على مصالحها . ولكن اذا سيطرت فرنسا على الاساطيل المجتمعة في جنوا ونابولي ، فبريطانيا يمكنها أن تدافع عن ممتلكاتها في مالطة وكورفو وجبل طارق » .

(٢) Hallberg (Charles) The Suez Canal, New York, 1931, P. 172.

اما موقف بروسيا ، فهو موقف الحياد الذي تمسكت به في حرب القرم وما بعدها ، وبما انها كانت اذ ذاك تأتي في آخر صف الدول الكبرى ، فانها رأت من الحكمة ان لا تتورط في انتهاج سياسة معينة بصدد مشاكل اوربا . (١) ولذلك فانها رفضت التدخل في المسألة الايطالية برغم الحاح كافور ، لانها خشيت انها اذا ايدت مبدأ اعادة النظر جزئيا في معاهدات ١٨١٥ ، ان تثير فرنسا من بعد مسألة الرين . وموقف المندوب البروسي في اجتماعات لجنة بيروت الدولية كان خاليا من الغرض ، يتمشى كثيرا مع مقتضيات العدل والمنطق ، ومع خطة الوفاق والوصول الى تسوية يرضى عنها جميع المندوبين الاخرين ، وظلت المشاعر المسيحية تحركه الى حد كبير .

كان هذا هو الموقف الدولي عام ١٨٦١ ، عشية اجتماعات اللجنة الدولية في بيروت ، وقد استطاع المندوب العثماني فؤاد باشا ان يحول ببراعة دون خرق اللجنة الدولية سيادة السلطان وصلاحيات موظفيه ، وكان يرى انها ينبغي ان لا تتمتع بسلطة قضائية وادارية ، بل يكفي ان تكون مهمتها استشارية بحتة .

ولبلوغ ذلك كان عليه أن ينتهج الخطة التي كان الترك ينجحون بها في الغالب ، وهي التسويف والتأجيل والمراوغة ، وبث الانقسام ، وتعويق اللجنة عن التقدم في عملها . ونحن نسجل للمندوب العثماني فؤاد باشا انه قد نجح في هذا المضمار ايما نجاح ، واظهر مقدرة ديبلوماسية فائقة ، وهو يومذاك في الخمسين من عمره ، له لحية تميزه خالطها الشيب ، جميل الطلعة تتوقد عيناه ذكاء وحيوية ، هذا الى طلاقته باللغة الفرنسية ، وشهرته في القيادة العسكرية ، وخبرة تامة بشؤون اوربا وسياساتها ، وغزارة في العلم وتفوق في المعارف والاطلاع ، على حد قول كاتب معاصر له (٢) .

---

(١) Da la Gorce, op. cit., P. 165.

(٢) انظر ترجمة حياة فؤاد باشا في
Edwards (R.) La Syrie 1840 - 1862, Paris 1862, pp. 185 - 188.

بدات اللجنة الدولية اعمالها ، واضطر فؤاد باشا ان يتغيب عن جلساتها الاولى بداعي تدارك الامور في دمشق ، وتباطأ سير اللجنة ، وكان ينوب عنه ابرو افندي وهو ارمني كاثوليكي ، وكان ابرو كثير الاعتراض والانتقاد ، يحافظ بشدة على نظرية سيادة السلطان ، وينبري للاحتجاج على تجاوزات المندوبين حدود مهمتهم · فاذا جوبه بآراء تخالف اراء السلطات التركية ، او تثير شبهة في سلوك الحكومة او احد وكلائها أكد انه لم يتلق أية تعليمات بعد ، واجتنب كل مناقشة تحسم الموضوع· وابرو في ذلك كله يتبع تعليمات رئيسه الذي كان تارة مستقيما واضحا وتارة مراوغا داهية ، واستطاع بذلك أن يحد كثيرا من صلاحيات اللجنة التي ادعتها لنفسها بضغط من اوربا ، ويقيد نشاطها · تجلى ذلك اثناء بحث المسألتين المهمتين اللتين دار حولهما جدل حاد وهما معاقبة المسؤولين عن حوادث الستين وتنظيم تعويضات المنكوبين ابان تلك الحوادث · كانت اللجنة ترغب في ان يكون لها دور الاشراف على الاحكام الصادرة ضد المتهمين والجناة ، فلم تستطيع ان تلعب هذا الدور الا بصعوبة بالغة وكانت ترغب في أن تشترك بتحديد مبلغ التعويض المستحق للمنكوبين ، ولكن الباب العالي هو الذي حدد هذا المبلغ في النهاية ·

❀ ❀ ❀

مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر

د. عبد الكريم رافق

استاذ في قسم التاريخ بجامعة دمشق

لعب الجيش العثماني دورا هاما في الامبراطورية العثمانية ، سواء في تدعيم سلطتها او في تقويض اركانها ، وتالف من انواع من الجنـد ، منها السباهية (الفرسان) ، الذين منحوا الاقطاعات ، والانكشـارية (المشاة) ، اصحاب المرتبات . وبالاضافة الى هاتين الفئتين ، برزت في بلاد الشام ، وفي غيرها من الولايات ، قوات مرتزقـة استخدمها الثائرون على الدولة ، منذ مطلع القرن السابع عشـر ، ثم اعتمدتها الدولة نفسها ، منـذ القرن الثامن عشر ، حين تقاعست القوات النظاميـة عن دعـم سلطتهـا . وادت الحاجة للقوات المرتزقـة الى كثرة اعدادها ومصادر تجنيدها وتنوعهـا .

واستغـل السكان العرب في بلاد الشام انهيـار انظمـة الجيش العثماني فتسربوا الى عـدد من وحداته ، وصبغوها بالصبغة المحلية ، فغدت تخدم المصلحة المحلية ، باكثر من المصلحة العثمانية .

ونتج عن هـذا الاندمـاج آثار اقتصادية واجتماعية ، ايجابيـة وسلبية . وتعالج هذه الدراسة الوحدات العسكرية العثمانية في بـلاد الشام ، وكذلك نماذج من طرق القتال التي اعتمدتها هـذه القوات ، وانواع الاسلحة التي استخدمتها ، ومصادرها ، كما تعالج جاهزيـة القوات القتالية ومدى فعاليتها ، ونشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية .

١ ـ القوات العسكرية :

أ ـ الانكشارية : اقام العثمانيون في مراكز الولايات والقلاع فرقامن

الانكشارية للدفاع عنها . والتسمية مشتقة من الكلمتين التركيتين (Yeni çéri) ، وتشيران الى الفرق الجديدة تمييزا لها عن الفرق القديمة من الفرسان (السباهية) ، أصحاب الاقطاعات . وقد حرفت الكلمة التركية بالعربية الى ينيجرية ، وشاعت على أنها انكشارية . وكان السباهية من الفرسان ، اما الانكشارية فمشاة . ونظرا لعدم تعرض بلاد الشام ، بعد احتلال العثمانيين لها ، الى عدوان خارجي، فقد انصرف الانكشارية فيها الى تعاطي الاعمال التجارية مما شجع التجار المحليين على الانخراط في صفوف الانكشارية ، للافادة من امتيازاتهم . وقد وجه السلطان العثماني في ٤ جمادى الاول ٩٨٥ ٢٠ تموز ١٥٧٧ فرمانا الى والي دمشق يأمره فيه ان يعين في الوظائف التي تشغر في طائفة الانكشارية ، اناسا من الروم (أي من العثمانيين) ، وليس من المحليين والاغراب ، كما كان يحدث ، وذلك في محاولة للحفاظ على الصبغة العثمانية للانكشارية ، وبالتالي لتأمين الانضباط في صفوفهم وتوجيه ولائهم للمصالح العثمانية وليس للمصالح المحلية . ولكن الفرمان لم يطبق بحزم ، واستمر المحليون والاغراب ينتسبون الى صفوف الانكشارية . وانعكس هذا الانتساب في الاسماء غير التركية التي بدأت تظهر بين أسماء الانكشارية . وأبدت هذه العناصر غير الرومية ميلا لابتزاز المال من الاهلين ، وروعت سكان الريف في ولاية حلب الغنية ، حيث ذهبت فرقة منهم كل سنة لمساعدة جباة الضرائب (الملتزمين) في جمع الاموال ، او لممارسة ذلك بأنفسهم ، مما اضطر والي حلب ، في اواخر القرن السادس عشر ، الى طردهم بالقوة (١) .

وتميزت العلاقة بين طائفة الانكشارية في دمشق والسلطة

---

١ ــ انظر محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤/١٨٦٩ (تصوير مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٦) ، جـ ٢ ، ١٢٩ ، جـ ٣ ، ١٥٦ ، ٢٩٩ ، ٤١٧ ــ ٤١٨ ، ٤٢٧ ــ ٤٢٨ ، جـ ٤ ، ٤٤٩ ــ ٤٥٠ ؛ محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء ، بولاق ، ١٣٠١ (تصوير مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٦) ، جـ ١ ، ١٦٦ ، جـ ٢ ، ٦٣ ؛ كامل الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ اجزاء ، حلب ١٩٢٢ ــ ١٩٢٦ ، جـ ٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩ ؛ محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ، ١٩٢٣ ــ ١٩٢٤ ، جـ ٣ ، ٢١٩ .

العثمانية الممثلة بالوالي ، ولقبه الباشا ، بالقوة او بالضعف ، حسب موقع كل منهما . فحين كانت السلطة المركزية قوية ، كما في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) ، بطش بزعماء الانكشارية المتمردين . وفي الفترة التي تلت عهد السلطان مراد الرابع اضطرت الدولة للاعتماد على زعماء انكشارية دمشق في قيادة قافلة الحج الشامي الى الحجاز ، وعينتهم بهذه المناسبة ، حكاما على واحد أو أكثر من صناجق ولاية الشام ، حيث احتفظوا بالقوات التي وضعت تحت تصرفهم لحماية الحج فيها ، وحيث جمعوا الضرائب (الميري) لتمويل القافلة . وقد تم ذلك نظرا لضعف او زوال الامراء المحليين من حكام صناجق ولاية الشام الذين عهد اليهم ، قبل ذلك ، بإمارة الحج . ولكن قضاء فخر الدين المعني الثاني ، امير جبل لبنان ، اثناء توسعه ، على هؤلاء الامراء او اضعافهم ، جعل الدولة ، بعد الفراغ الذي احدثه قتلها لفخر الدين في عام ١٦٣٥ ، تلجأ لتعيين الانكشارية امراء للحج لان المبادرة السياسية على ولاية الشام انتقلت الى القوى المتواجدة في دمشق . وملأ الانكشارية بعضا من هذا الفراغ .

وأدى ازدياد نفوذ الانكشارية وبروز زعماء مشهورين من بين صفوفهم ، مثل كيوان ، وعلي بن الارناؤوط وحسن التركماني (ذكر مثلا ان افراد اسرة حسن التركماني شكلوا مع اتباعهم حوالي ربع عدد الانكشارية في دمشق (١)) الى تأليب الدولة عليهم ، بعد ان ايدوا والي حلب ، ابازه حسن باشا ، في ثورته على الدولة في عام ١٠٦٧/١٦٥٦ — ١٦٥٧ ، فالتفتت اليهم ، بعد القضاء على ثورة حسن باشا ، المعروفة بالحسنية ، وبطشت بزعمائهم في عام ١٠٦٩ / ١٦٥٨ — ١٦٥٩(٢) . وابدت الدولة آنذاك ، على اكثر من صعيد ، نشاطا ملحوظا في عهد الوزراء

---

١ — المحبي ، ج ٣ ، ٤٣٧ ؛ المرادي ، ج ٢ ، ٦٣ .

٢ — المحبي ، ج ٢ ، ٧٨ — ٧٩ ، ٤١٨ ، ج ٤ ، ٣١١ ؛ محمد بن جمعة ، الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن مولانا السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 9785 we. II, 418 انظر الاوراق ، ١٤ ب — ١٥ ب ، وهذه النسخة اكمل من النسخة الاخرى في مجموعة برلين ، برقم 9785 Spr. 188 التي نشرها د. صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ ؛ وانظر : الطباخ ، ج ٣ ، ٢٦٨—٢٧١ .

العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦ ـ ١٦٧٦) . وارسلت فرقا انكشارية جديدة الى دمشق ، تميزت بالولاء للادارة المركزية ، وعرفت بالقابي قول (ابي عبيد الباب ، وهو باب السلطان) ، وتمركزت في القلعة وعلى السور وعند ابواب المدينة . واخرجت الطائفة الانكشارية اليرلية من هذه المراكز واوكل اليها نظريا حراسة منازل الحج . وهكذا أصبح في دمشق طائفتان انكشاريتان : الانكشارية اليرلية ، اي المحلية ، التي أصبح معظم أفرادها من السكان المحليين ، والانكشارية القابي قول ، التي بقي ولاؤها للادارة المركزية(١) . وكانت القابي قول ترفد، بين الفترة والاخرى ، بفرق جديدة لتدعيم ولائها للادارة المركزية. وزاد هذا الامر في عدائها للانكشارية المحلية التي كانت تهتم بمصالحها. ومما أزم العلاقة بين الطائفتين ان الباشا استخدم القابي قول للبطش بزعماء اليرلية ، كما ان محاولة بعض أفراد القابي قول دخول ميدان التجارة المحلية اكسبهم عداء اليرلية الذين احتكروا هذه التجارة . وعرفت اليرلية بدولة دمشق نظرا لتسلطها في المدينة ، فيما عرف القابي قول بدولة القلعة . وكان تاريخ دمشق بين عامي ١٦٦٠ و ١٨٢٦ (سنة الغاء الانكشارية) حافلا بالصراع بين الطائفتين .

ولو استعرضنا أسماء الطائفة الانكشارية التي تسرب اليها المحليون والاغراب بالتدريج الى ان سيطروا عليها ، لوجدنا ان هذا التسرب قد انعكس في اسماء زعماء الانكشارية . فحين مدت الطائفة الانكشارية في دمشق سيطرتها الى ريف حلب في أواخر القرن السادس عشر ، برز بين زعمائها آق يناق ، قره يناق ، خدا وردي ، وحمزة الكردي . وتمثل هذه الاسماء العناصر الغريبة ، من تركمانية وكردية ، التي سيطرت على طائفة الانكشارية . وحين بطش بهؤلاء الزعماء برز بعدهم أخرون مثل حسن التركماني ، علي بن الارناؤوط ، كيوان ، وعبد السلام المرعشي . وفتكت الدولة بهؤلاء الزعماء ايضا، وبرزت في أعقاب ذلك، بعد عام ١٦٦٠، عناصر محلية دمشقية في زعامة الانكشارية مثل صالح اغا ومحمد اغا من آل صدقة ، وسليمان اغا وموسى اغا من آل الترجمان ، وخليل آغا طالو .

---

(١) انظر تفاصيل اخرى عن ذلك في كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, Beirut, 2nd edition, 1970, pp. 26 - 35.

وبعد حوالي قرن من ذلك سيطر الدمشقيون بكثافة على الانكشاريةاليرلية التي اخذت تدافع عن مصالحهم ضد الولاة العثمانيين الظالمين وضد القوات الغريبة التي استخدمها هؤلاء لكبحهم . وذكر الاخباري الدمشقي حسن الشهير **بابن الصديق** ، في مؤلفه : « **غرايب البدايع وعجايب الوقايع**»(١)،الذي ارخ فيه لعام ١١٨٥/١٧٧١ ـ ١٧٧٢ ، حين غزت قوات علي بك المملوكي،حاكم مصر،دمشق ، الاسماء التالية بين أصحاب الرتب العليا في طائفة الانكشارية اليرلية : فارس العضم ، أحمد العضم ، حسين ومحمد القطيفاني ، اسماعيل البكري ، علي خير ، حسن الحواصلي ،علي الحيدري ، محمد وعلي اقبيق ، عمر القباني ، احمد شحادة ، محمد السقباوي ، اسماعيل البيطار ، محمد بكداش ، أمين شيخ السروجية ، علي وحسين وصالح الشاويش ، ياسين ومحمد الصواف ، حسن شبيب، ابراهيم عابدون ، مصطفى الدوجي ، بكر ميرو، عبد الله سكر ، ومصطفى السقباوي . وكان معظم هؤلاء من كبار تجار الحبوب في حي الميدان وحي سوق ساروجا ، معقلي الانكشارية اليرلية في دمشق . وكان اغاالانكشارية انذاك يوسف بن جبري .

ولم يحدث مثل هذا التطور ، على مستوى تسرب العناصر المحلية الى الطائفة الانكشارية والسيطرة عليها ثم ارسال طائفة انكشارية اخرى ، في ولاية حلب اذ بقيت طائفتها الانكشارية ممتنعة على سيطرة العناصر المحلية ، نظرا لقرب حلب من مركز السلطنة ووقوعها بمتناول قواتها ، ومرور القوات العثمانية فيها في طريقها الى الجبهة الصفوية ، مما زاد في فرض النفوذ العثماني فيها . ولكن سكان حلب لم يعدموا منظمة محلية لابراز نفوذهم من خلالها ، وبالتالي للدفاع عن مصالحهم ، فقام الاشراف، بقيادة نقيب الاشراف ، بالدفاع عن المصالح المحلية ضد العثمانيين المثلين بالانكشارية . ومن هنا الاصطدامات الدامية بين الاشراف والانكشارية في حلب(٢) ، واهمية الدور الذي لعبه أشراف حلب الى درجة حيَّرت معها ...احثين بقوتهم وكثرة اعدادهم . ولا يعني هذا ان الاشراف لم يكن لهم وجود أو نفوذ في دمشق ، ولكنهم لم يلعبوا دورا سياسيا وعسكريا بارزا

---

١ ـ مخطوط في مجموعة برلين ، برقم . 9832. We II. 417، انظر ظهر الغلاف الاول والورقة ١ ب .

٢ ـ انظر مثلا الموقعة المروعة عند جامع الاطروش في رمضان ١٢١٢ \ شباط ١٧٩٨ التي ذهب ضحيتها مئات من الاشراف ، الطباخ ، جـ ٣ ، ٣٧٠ ـ ٣٧٢

فيها ، كما فعل نظراؤهم في حلب ، لان سكان دمشق وجدوا في الطائفة الانكشارية اليرلية متنفسا لقوتهم . ودعم اشراف دمشق وشبان الحارات الانكشارية اليرلية في الدفاع عن المصالح المحلية التي كانت القاسم المشترك بينهم . واشارت المصادر المحلية الى تجمع القوى هذا باسم ابناء دمشق .

واختلفت التقديرات حول عدد الانكشارية في الشام ، وقد ذكر ان عدد انكشارية دمشق ، حين ثار حاكمها جان بردي الغزالي على العثمانيين في عام ١٥٢٠ ، قد بلغ مائة وخمسين بما فيهم من فقهاء وصوفية(١) . وقدر عدد الانكشارية القابي قول ، حين ارسلوا الى دمشق في عام ١٠٦٩ / ١٦٥٨ - ١٦٥٩ ، بالفين(٢) في حين ذكر مصدر آخر انهم ثلاثمائة(٣) . وفي عام ١١٨٤/١٧٧٠ - ١٧٧١ قدر عدد القابي قول بالفين(٤) وكان عدد اليرلية آنذاك الفين وسبعين بالاستناد الى قوائم اسمائهم التي دفعت الرواتب على اساسها(٥) . ولكن هذه القوائم لا تعتبر مقياسا صحيحا للعدد الفعلي، نظرا لان الرواتب كانت تصرف للاطفال والمسنين ، وحتى للمتوفين . وقدر انكشارية حلب في تلك الفترة بثلاثة الى اربعة الاف(٦) .

ب ـ **السباهية** : تصرف العثمانيون ، بعد فتحهم بلاد الشام ، باراضي الدولة (الاراضي الاميرية) التي آلت اليهم من السلطنة المملوكية، فأعطوا معظمها على شكل اقطاع بانواعه الثلاثة : الخاص ، ويقدر وارده بما يزيد على مائة الف اقجة (وحدة نقدية فضية) ، واعطي الى افراد الاسرة المالكة وكبار الموظفين أو الحق بمناصب الولاة وغيرها لينفق من وارده على أصحابها ، والزعامت ، ويزيد وارده عن عشرين الف اقجة ،

---

١ ـ محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، جـ ٢ ، ١٢٤ .
٢ ـ ابن جمعة ، مخطوط برلين رقم (٩٧٨٥) ، الورقة ، ١٥ ب .
٣ ـ المحبي ، جـ ٤ ، ٣١١ .
٤ ـ حسن بن الصديق ، الورقة ، ٢٨ ب .
٥ ـ المصدر السابق ، الورقة ، ١١٠ ب .

6. Archives Nationales (Paris), Affaires Etrangères, B' 94 : Alep, 16 avril 1777.

واعطي للضباط، والتيمار الذي قدر وارده بأقل من عشرين ألف اقجة ووزع على أفراد الجيش من الفرسان السباهية ليكون معاشا لهم . وما زاد عن حاجة الفرسان من الواردات جندوا به الاتباع . وعرف مجموع افراد هذا الجيش الذي أعطي الاقطاع ، من نوعي زعامت وتيمار ، بالسباهية . وكان هؤلاء اقدم فرق الجيش العثماني . ولم يكن الاقطاع العسكري بالشيء الجديد اذ شاع أمره منذ عهد السلاجقة بغية ربط المقاتل بالارض ليدافع عنها اذ لم تكن له آنذاك من قضية ، عصبية أو دينية ، ليتعلق بها .

ويلاحظ من تفحص قوائم السباهية في بلاد الشام في القرن السادس عشر ان معظمهم كان من اصل كردي أو مملوكي . وعرف قائد السباهية بآلاي بك . ووجد الاي بك في كل صنجق (وحدة ادارية يرفع صاحبها الصنجق أي العلم أمامه) من صناجق الولاية . وجاء في مجموعة القوانين (قانون نامه) التي صدرت في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ، التي قسمت بموجبها بلاد الشام ، ان عدد القوات السباهية في كل من ولايات الشام وحلب وطرابلس ، هو ٥٠٠ر٥ (١) وذكر الكاتب عيني علي العثماني ، وتنطبق الارقام التي اوردها على الربع الاخير من القرن السادس عشر ، ان عدد السباهية في الولايات الثلاث قد بلغ ٢٦٣ر٨(٢) ولو اضفنا الى هذا الرقم عدد السباهية في ولاية الرقة التي تبعت ، جغرافيا وتاريخيا ، بلاد الشام لاصبح عدد السباهية في بلاد الشام ٤٢٩ر١٠ من مجموع قدره ٥٣٥ر١٢٠ للامبراطورية بكاملها(٣) . وقد ذكر بول ريكو ، سكرتير السفير الانكليزي في استانبول ابان سلطنة محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧) ، ان عدد السباهية في ولايات الشام حلب وطرابلس والرقة بلغ ٧٧٦ر٧(٤) وينطبق هذا على الفترة التي

1. Evliya Efendi (Chelebi), **Narrative of Travels**, Translated from Turkish by Joseph von Hammer - Purgstall, 2 vols., 1834, 1846, vol. I, pt. i; pp. 101 -102 .
2. Ayn-i Ali, **kavanin-i al-i Osman**, in M. Belin « Du Régime des fiefs militaires dans l'Islamisme », **Journal Asiatique**, XV (1870), pp. 273-278.
3. **Ibid.**
4. Ricaut (Rycaut), **Histoire de l'état présent de l'Empire Ottoman**, 2 vols., Cologne, 1676, vol. II, pp, 14 - 21.

سبقت عام ١٦٦٠ التي استحدثت فيها ولاية رابعة في بلاد الشام هي ولاية صيدا .

وطبيعي ان عدد السباهية النظري لا ينطبق مع الواقع لان محظورهم الرئيسي تعلقهم بالارض الى درجة انهم تهربوا من الخدمة العسكرية . وقد سمحت الدولة لهم بدفع مال البدل لقاء الخدمة . وذكر م. جيراردان في مذكراته بتاريخ ١٦٨٧ ان عدد السباهية الفعلي لولايات دمشق وحلب وطرابلس بلغ ١٤٠٠(١) .

ونتج عن تقلص عدد السباهية ان استعادت الدولة الاقطاعات التي شغرت ، ولم تعطها لسباهية جدد . وانعكس ذلك على تقلص دائرة الدفترامني التي كانت تعنى بشؤون الاقطاع ، فضغطت وظائفها ونفقاتها .

وعهد الى السباهية بالمحافظة على القلاع في طريق الحج ، وذلك قبل أن يعهد الى الانكشارية اليرلية في عام ١٦٦٠ بهذه المهمة . ولم تكن لهم واجبات محددة بعد ذلك . واستعين بهم في وقت الازمات ، واستثير حماسهم الديني ، لا واجبهم العسكري ، في القتال ، مما يدل على تدني كفاءتهم واهميتهم العسكرية . وادى دفعهم البدل النقدي (٢) الى تضاؤل اهميتهم العسكرية .

ج ـ القوات المرتزقة : حين كانت السلطة العثمانية قوية في بلاد الشام ، كما في غيرها . في القرن السادس عشر ، لعبت القوات النظامية دورا هاما في تدعيم هذه السلطة واخضاع الشعوب لها . وعندما ساءت الاوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية ، بدءا من النصف الثاني من القرن السادس عشر ، انخفضت قيمة العملة ، واثر ذلك على أصحاب المرتبات ، ومنهم الجنود ، فلجأوا الى الابتزاز وفرض الضرائب لتعويض القيمة المنهارة لمرتباتهم . وحين حاولت الدولة منعهم عن ذلك تمردوا عليها . وهكذا حدثت سلسلة

1. Belin, « Du Régime », J.A. XV (1870), pp. 290 - 291.

٢ ـ محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Or. 4050 الاوراق ، ٤٢ أ ، ٤٢ ب .

من الثورات العسكرية في مختلف الولايات العربية بدءا من مناطق الاطراف في اليمن ، ومرورا بمصر وبلاد الشام والعراق ثم شمال افريقية وسرعان ماحذا الامراء المحليون حذو العساكر في التمرد والثورة على الادارة العثمانية ، وتمثل ذلك في بلاد الشام بثورتي علي باشا جانبلاط فيمنطقةكلس ــ حلب،في العقد الاول منالقرن السابع عشر ، وفخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان في الثلث الاول من ذلك القرن . واتسعت قاعدة التحدي والثورة على العثمانيين في القرن الثامن عشر فبلغت القواعد الشعبية في الارياف والمدن . ونظرا لتفكك الجيش العثماني الرسمي ، من سپاهية وانكشارية ، خولت الدولة الولاة استئجار قوات مرتزقة لمساعدتهم في تصريف شؤون الدولة . ولجأ الامراء المحليون بدورهم الى استئجار هذه القوات لدعم سلطتهم في وجه الدولة . ووجدت انواع متعددة لهذه القوات المرتزقة على مر الزمن واهمها :

١ ــ **السكبان** : وكانوا اول من برز من هذه القوات في بلاد الشام ، وذلك في خدمة علي باشا جانبلاط ، الامير الكردي الذي ثار في منطقة كلس ــ حلب في عام ١٦٠٥ ، وحاصر دمشق في العام التالي ، ثم قضت عليه الدولة ، وفي خدمة حليفه الثائر امير جبل لبنان فخر الدين المعني الثاني (١٥٩١ ــ ١٦٣٥) .

وكلمة سكبان فارسية الاصل تتألف من مقطعي سك وتعني الكلب ، وبان وتعني الحامي . والسكباني في الاصل « يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجوره ويمشي امام الامير او الكبير ، حين يسير الى الصيد »(١) ثم اطلقت الكلمة على الذين يبيعون خدماتهم القتالية لقاء المال . وسكمان التركية تحريف لكلمة سكبان .

ولا يعرف المكان الاصلي للسكبان . ويقول فون هامر انهم خليط من الناس من كل البلدان(٢) ويستفاد من عبارات متعددة للاخباري ــ

---

١ ــ الحسن البوريني ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٧ ، ١٩٦٣ ، انظر : جـ ٢ ، ٢٥٩ .ولم يتم تحقيق هذا المخطوط .

2. Joseph von Hammer - Purgstall, **Histoire de L'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours,** 18 vols., trad. de l'allemand par J.J. Hellert, Paris, 1835 - 43, XI, 398 - 9, XII, 402.

المترجم الدمشقي الحسن البوريني (المتوفى عام ١٦١٥) ان السكبان في بلاد الشام من اصل رومي ، اي من المنطقة الواقعة ماوراء طوروس والفرات ، وانهم ظهروا في بلاد الشام لاول مرة في صنجق نابلس ، التابع لولاية الشام ، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في خدمة الوالي العثماني الذي استخدمهم لاخضاع سكان نابلس (١) . ثم شاع استخدامهم ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، من قبل الامراء الثائرين في بلاد الشام . وقد وصف السكبان بانهم متمرسون في فنون القتال (٢) .

واستفيد من السكبان في بلاد الشام في حماية القلاع وفي الخدمة كمشاة وفرسان (٣) . وسمح احيانا للمتزوجين منهم بايواء أسرهم في القلاع . وحين استخدم أحد الامراء أعدادا جديدة منهم اشير الى هؤلاء بانهم الطائفة الجديدة ، بينما اشير الى القدامى منهم بالطائفة القديمة . وتألف السكبان من فرق متعددة يقود كلا منها قائد برتبة بلوك باشي . وكانت أعداد السكبان كبيرة اذا ماقورنت باعداد القوات المرتزقة الاخرى . وذكر ان فخر الدين المعني الثاني كان فيخدمته منهم ، بعد معركة عنجر في ١٦٢٣ التي اسر فيها والي دمشق مصطفى باشا ، حوالي ثلاثة آلاف (٤) . واستخدم منافسه ، يوسف باشا سيفا ، والي طرابلس، مثل هذا العدد (٥) . وذكر البوريني انه كان في خدمة علي باشا جانبلاط عشرة آلاف من السكبان (٦) .

ويبدو أنه لم يكن للسكبان قائد أعلى ، بل قادة فرق ، بلوكباشية ، اختير أحدهم أحيانا ليكون قائدا لهم برتبة سردار . واشير الى المرتبات التي تقاضوها بالعلائف (مفردها علوفة) ، ودفعت شهريا . واعطي

---

١ ـ البوريني ، ج ٢ ، ٢٥٩ .

٢ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٨٤ .

٣ ـ احمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٣١ ـ ٣٢ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ١٢٩، ١٤٨ .

٤ ـ الصفدي ، ١٥٢ .

٥ ـ البوريني ، ج ٢ ، ٢٨٤ .

٦ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٧١ .

السكبان ، بالاضافة الى ذلك ، اعطيات ، دعيت بخشيش ، وتجاوزت احيانا قيمة مرتبهم . وذكر ان من عادة كل فرقة من السكبان ان تجمع الغنائم على حدة ، ومن ثم تبيعها ، ويقتسم افرادها ثمنها (١) . واذا لم يسيطر مستأجر السكبان عليهم فسرعان ماينقلبون الى فوضويين يروعون السكان المحليين ، وخاصة سكان الريف (٢) .

٢ ـ **اللاوند** : استخدمت هذه التسمية في الاصل للبحارة ، وذلك تحريفا لكلمة « ليفانتينو » التي اطلقت من قبل البنادقة على الشرقيين (من المشرق اي الليفانت) الذين استخدموا في اسطولهم . واطلق العثمانيون على بحارتهم الاوائل تسمية لاوند (Levend) التي استعاروها من البنادقة وحرفوها بدورهم . وعندما تمرد هؤلاء البحارة من اللاوند ، وسرحوا ،واستبدلوا باخرين ، اطلقت الكلمة على المتمردين ، ثم عرف بها المرتزقة الذين باعوا خدماتهم (٣) .

وكان اللاوند من الفرسان بصورة رئيسية،وجندوا ، مثل السكبان، من بلاد الروم . و في القرن الثامن عشر اقترن اسم اللاوند في دمشق بالاكراد ، ومن هنا القوات التي عرفت آنذاك بلاوند الاكراد (٤) . وذكر اللاوند ، الى جانب السكبان ، في خدمة فخر الدين المعني الثاني .

وترأس اللاوند قائد عرف بالاغا ، واقاموا في دمشق في خان عرف بخان اللاوند نسبة لهم . وقامت الدولة العثمانية بعدة محاولات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، للقضاء عليهم . وتمكن من أفلت منهم من الالتحاق بخدمة محمد باشا العظم والي دمشق (١٧٧١ ـ ١٧٨٣) واحمد باشا الجزار والي صيدا (١٧٨٥ ـ ١٨٠٤) .

---

١ ـ الصفدي ، ١٥٢ .

٢ ـ سجلات محاكم حلب الشرعية ، سجل رقم ١ ، ص ١٩ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٤ رجب ١٠٣٢/ (٢ ايار ١٦٢٥) ، سجل رقم ٣٣ ، ص ٢٨٥ ، الوثيقة ذات التاريخ ٢٩ ربيع الاول ١٠٩٩ / (٢ شباط ١٦٨٨) .

3. - H. A. R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the west**, Vol. 1, 2 parts. London, 1950, 1957, L. i. 98,99.

٤ ـ احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ـ ١١٧٥ هـ ، تحقيق د . احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢ ، ١٩٨ .

واستخدم ولاة دمشق اللاوند في حملاتهم العسكرية . كما ان اللاوند كثيرا ما اشتبكوا مع قوات منافسة لهم مثل الدالاتية والمغاربة واليرلية(١) .

٣ ـ **الدالاتية** : مفردها دالاتي ، وهي مشتقة من الكلمة التركية (Deli) وتعني الاهوج أو الطائش . وعرفت هذه القوات بالدالاتية بسبب اندفاعها وطيشها . واستخدمت اول الامر من قبل والي روميلية في مطلع القرن العاشر الهجري اي السادس عشر الميلادي . ودب الفساد في صفوف الدالاتية في القرن الثامن عشر ، وجندوا انذاك من اتراك الاناضول والكرواتيين والبوسنيين والعرب . وعرف قائدهم بلقب دلي باشي . وكان لهم في دمشق ، على غرار اللاوند والمغاربة ، خان خاص بهم عرف بخان الدالاتية .

واعتمد ولاة الشام على الدالاتية في حملاتهم وفي حماية قافلة الحج، واستخدموهم كذلك في كبح اليرلية . ولم يؤمن جانب الدالاتية باستمرار، وكثيرا ماروعوا الاهلين ، وتسببوا في الفساد الاخلاقي في دمشق (٢) .

٤ ـ **التفنكجية** : تعني هذه الكلمة حملة (التفنك) اي البارودة ، ومعظمهم من المشاة . وقد اشتهروا في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، وكان يقودهم التفنكجي باشي . ولا تعرف بالتأكيد المناطق التي جند منها التفنكجية . ويلاحظ ان التفنكجي باشي في عهد والي دمشق اسعد باشا العظم (١٧٤٣ ـ ١٧٥٧) كان بغداديا(٣) ، كما ان التفنكجية انحازوا الى جانب البغدادية والموصلية في صراعهم مع الاكراد في دمشق(٤) ، مما يوحي باصل مشترك بين الطرفين .

وقد عهد الى التفنكجية باقامة الامن في دمشق ، كما انهم كلفوا في اوقات الازمات بمهام عسكرية خارج دمشق . وكانوا ، على وجه العموم، اكثر انضباطا ، واقل تمردا ، من القوات العسكرية الاخرى ، ولكنهم كانوا اقل اهمية عسكرية منها .

---

١ ـ المصدر السابق ؛ ابن الصديق ، الورقة ، ٤٧ آ .

٢ ـ البديري ، ص ٨٧ ، ٩٦ ، ١٠٦ ؛ ابن الصديق ، الاوراق ، ٤١ آ ، ٤٢ ب .

٣ ـ ميخائيل بريك ، تاريخ الشام ١٧٢٠ ـ ١٧٨٢ ، تحقيق قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ١٤ ـ ١٥ .

٤ ـ البديري ، ١٤٨ .

٥ ـ **المغاربة** : كانت هذه القوات من المشاة بصورة عامة ، وقلة منها من الفرسان . وقد جندوا ، بوجه عام،من الجزائر وتونس . وتواجد المغاربة في بلاد الشام قبل الحكم العثماني بوقت طويل ، ويذكر أن زاوية للمغاربة بنيت في دمشق في عام ١٣٩٩/٨٠٢ ـ ١٤٠٠ ، مما يدل على أن جالية مغربية وجدت فيها ، كما وجد مثل ذلك في القدس وطرابلس . وذكر الشيخ عبد الغني النابلسي زيارته في القدس لجامع المغاربة ، وذلك في ربيع الاول ١١٠٥\تشرين الاول ـ تشرين الثاني ١٦٩٣ (١) .

ومما تجدر ملاحظته انه وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق في القرن الثامن عشر ، راس كل طائفة منها شيخ مسؤول امام شيخ المشايخ ، وهو رئيس المغاربة الاعلى في دمشق . واسماء هذه الطوائف هي : الفاسية ، الجزائرية ، السوسية ، التونسية ، الطرابلسية ، الدراوية والمراكشية . وعمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراسا في الخانات والحارات والاسواق ، ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة. وكان شيوخ الطوائف وعلىراسهم شيخ المشايخ ، مسؤولين أمام السلطات العثمانية عن سلوك افراد طوائفهم . والعسكريون من المغاربة خضعوا لآغا المغاربة ، واذا ماتركوا الخدمة العسكرية أصبحوا في عهدة شيخ الطائفة التي ينتمون اليها (٢) .

ومع أن المغاربة اقاموا في بلاد الشام بغية المجاورة او طلب العلم او التجارة ، فان تواجدهم كطائفة عسكرية لها شأنها ، ولعبت دورا هاما في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، يثير الاهتمام ويستلزم التفسير . فمن الصحيح أن ازدياد اعتماد الولاة في ذلك القرن على القوات المرتزقة ادى الى ازدياد اعداد هذه القوات ، ولكن التدفق المستمر للمغاربة الى المنطقة آنذاك لا يوازيه تدفق اية قوات أخرى ، والسؤال لماذا تدفق المغاربة الى بلاد الشام وكيف استخدموا فيها .

---

١ ـ عبد الغني النابلسي ، كتابالحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشاموصر والحجاز، مخطوط في مكتبة جامعة كيمبردج ، برقم Q q 300 ، انظر الورقة ، ٩٤ آ .

٢ ـ انظر حول هذه الطوائف وتنظيماتها : سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل ٥٩ ، ص.٢٢ ، الوثيقة ذات التاريخ .١ رمضان ١١٤١ \ (٩ نيسان ١٧٢٩) . وانظر كذلك : محمد بن طولون ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى ،تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٢ هامش ١ .

ان تدفق المغاربة الى بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، عن طريق صيدا بصورة رئيسية ، يدل على انهم اتوها عن طريق البحر . ويتفق هذا مع اشتهار المغاربة كغزاة بحر . وليس هناك مايدل على ان جميع قوات المغاربة كانت من أصول مغربية ..وكثيرا ماضمت اسرى حرب من جنسيات مختلفة ، ولكن عناصرها الرئيسية وقياداتها كانت مغربية . ويفسر توافر هذه القوات الاضافية في المغرب ، وخاصة الجزائر ، باسلوب التجنيد الذي اتبعه داي الجزائر اذ كان يرسل سفنه كل خمس او ست سنوات الى المشرق ، وخاصة الى ازمير وقرمان على الساحل الغربي للاناضول ، لتجنيد القوات منها . ولم يسمح في الجزائر لابناء هؤلاء المجندين (الذين عرفوا بالكولوغلي) بالانتساب للجيش الا في حالات خاصة . وهكذا وجد عدد من أبناء المجندين العاطلين الذين تطلعوا خارج الحدود الى فرص العمل . ونظرا لاصولهم المشرقية والحاجة الى خدماتهم في بلاد الشام ، حيث انعدم الامن في القرن الثامن عشر ، فقد توجهوا الى تلك البلاد ليبيعوا خدماتهم ، كما توجهوا الى مصر حيث استخدمهم علي بك المملوكي في جيشه(١) .

وقد وجد للجنود المغاربة خان خاص بهم في دمشق عرف بخان المغاربة . واشركهم الوالي في حملاته وفي حماية قافلة الحج . وكثيرا ما اصطدمت قوات المغاربة في دمشق باللاوند والقابي قول وأحيانا بالوالي نفسه .

ولم يقتصر استخدام قوات المغاربة على ولاة دمشق،بل استخدمهم امير جبل لبنان وظاهر العمر . ووجد المغاربة ، في أكثر من مناسبة في جبهتين متقاتلتين ، كما حدث مثلا ، حين هاجمت قوات علي بك دمشق في حزيران ١٧٧١ وكان في صفوفها مغاربة ، كما وجد مغاربة ضمن القوات المدافعة عن دمشق .

---

١ ـ انظر حول اوضاع التجنيد في الجزائر :

Venture de Paradis, **Alger au XVIIIe Siècle**, ed. E. Fagnan, Alger, 1889, pp. 57 - 96.

وانظر ايضا كتابنا : **The Province of Damascus**, pp. 39 - 41

د ـ القوات الرديفة المحلية : تشتمل هذه القوات ، بصورة رئيسية ، على المجندين من القرى والمدن والقبائل البدوية . ومما تجدر ملاحظته ان الزعماء المحليين ، مثل المعنيين والشهابيين وآل سيفا وآل عساف وآل الحرفوش وآل علم الدين والمتاولة والزيادنه وغيرهم ، اعتمدوا ، بالدرجة الاولى ، على دعم اسرهم ، وأبناء مذهبهم ، ومؤيديهم من الحزبين القيسي أو اليمني . ولكن مثل هذا التأييد لم يقو على مجابهة الجيوش العثمانية المنتظمة ، لان صاحب الاسرة ، بعد بضعة ايام من القتال مع الامير ، تنتهي فيها مؤنته ، كان يهتم بالعودة الى اسرته وأرضه . ولذلك عمد الزعماء المحليون الذين استمروا في الحكم فترات طويلة نسبيا الى استغلال موارد مناطقهم واستئجار القوات المرتزقة لدعم سلطتهم .

واشير الى قوات الدعم المحلية باسم العشير . واذا ماساهمت منطقة ما بقواتها الى جانب امير ما عرفت هذه القوات باسم المنطقة التي خرجت منها ، مثل الشوافنة ، نسبة الى الشوف(١) . ولم تكن مثل هذه القوات لتتلقى مرتبات من الامير الذي دعمته ، واقتصر عطاؤه لها على اعطيات مالية او عينية لتكريمها ، وكانت تدعمه لاسباب اسروية او حزبية او غيرها .

وقد عمد الولاة العثمانيون الى تجنيد القوات من بين الفلاحين ، وطالبوا سكان القرى بتقديم المؤونة والمرتبات لهم . وذكر ان والي دمشق في صيف عام ١٧٤٣ ، بعد انقضاء موسم الحصاد كما يبدو ، أمر القرى المجاورة لدمشق بتقديم عشرة انفار كل منها ، ليساهموا في اقامة النظام والامن في المنطقة(٢) . وبعد ثلاثة اعوام ، وفي الصيف أيضا ، امر والي دمشق القرى حتى حدود معرة النعمان ، بتقديم خمسة عشر نفرا كل منها ، والتكفل بتموينهم ، لمساعدته في حملته على جبل لبنان(٣) .

---

١ ـ الصفدي : ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٣ .

٢ ـ البديري ، ٤٢ .

٣ ـ المصدر السابق ، ٩٧ .

وفي الحالات الطارئة استنفر سكان المدن ، وحملوا السلاح للدفاع عن مدينتهم ، أو عن قافلة الحج ، اذا ماتعرضت الى عدوان (١) . وكثيرا مالعب شباب الاحياء والحرفيون ، وهم من أصحاب البأس ، دورا هاما في الدفاع عن بلدهم . وكانوا يحملون السلاح ، بمعرفة الدولة ، لانها كانت مستضعفة في القرن الثامن عشر وغير قادرة على حماية السكان المحليين .

ولعب البدو ، وكان يشار اليهم بتسميات عرب وأعراب وعربان ، دورا هاما في بلاد الشام في العهد العثماني . فقد سيطروا على المنطقة الواقعة شرقي خط يمتد من حلب الى العقبة . وتسربت القبائل الصغيرة الى داخل المناطق الزراعية ، فمنها مااستقر ومنها ماهدد الاستقرار والزراعة ، أما القبائل الكبرى فكان مجالها بادية الشام . وقد سيطرت مجموعةقبائل الموالي في البادية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ثم حلت مكانها ، منذ مطلع القرن الثامن عشر ، مجموعة قبائل العنزة التي قدمت من الجزيرة العربية ، بسبب زيادة السكان فيها، وقلة الموارد الاقتصادية ، وضعف قبائل الموالي مما شجع العنزة على مهاجمتهم . وكان للحركات الموسمية للقبائل دور هام في ممارسة الضغط على السكان الريفيين وعلى السلطات العثمانية . ففي الربيع ، حين تنتشر القبائل من وسط البادية الى الاطراف ، تبعا لانتشار الكلأ ، كانت تضغط على القبائل الصغيرة المتواجدة على أطراف البادية ، فتقوم هذهبالتسرب الى الداخل ، مما يضر بالزراعة ويؤدي الى اصطدامها بالمزارعين .

وقلما تحالف البدو مع السلطات العثمانية ، وكثيرا ما ثاروا على هذه السلطات أو دعموا الثائرين عليها . ولجأ العثمانيون ، في محاولة منهم لتطبيع البدو ، الى الاعتراف بزعامة كبيرهم شيخا او اميرا للبدو في المنطقة التي يسيطر عليها ، واسبغت الدولة عليه الاعطيات والتكريم لتنفيذ سياستها بواسطته . وكثيرا ماتحكم البدو بخطوط المواصلات ، وخاصة منها طريق الحج والطرق التجارية التي تربط بلاد الشامبالعراق ومصر ، ولهذا وجب على الدولة أن تتعامل معهم بكل حذر .

وكثيرا ماعمد الامراء المحليون الى طلب دعم البدو لسلطتهم ، كما فعل ، مثلا ، ظاهر العمر ، الذي سيطر في منطقة صفد ـ طبرية ، في

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ؛ ابن الصديق ، الاوراق ، ٤٦ ب ـ ٤٧ ٢ .

الربع الاول من القرن الثامن عشر ، ثم مد سلطته على عكا وحيفا ، ومعظم فلسطين ، وأنشأ امارة عربية ، خضعت اسميا للعثمانيين ، واستمرت حتى مقتله في عام ١٧٧٥ . وقد اعتمد على قبائل بني صخر وبني صقر والسردية وغيرها ، وتزاوج معها لتدعيم حكمه .

ومن القوات الاخرى التي لعبت دورا هاما في بلاد الشام المماليك الذين بلغ استخدامهم الذروة في عهد والي صيدا أحمد باشا الجزار. وكان الجزار مملوكا في الاصل ، واصطنع جيشا من المماليك ليدعم بهم سلطته . وبعد وفاته في ١٨٠٤ خلفه أحد مماليكه سليمان باشا ، في حكم ولاية صيدا . ولا علاقة لمماليك الجزار بالمماليك الذين اشتهروا آنذاك في مصر أو في بغداد ، سوى بالاسم وطرق التجنيد والتدريب . وكانت كل كتلة منهم مستقلة عن الاخرى . ولكن مما يلفت الانتباه سيطرة هؤلاء المماليك الاغراب ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، في كل من مصر وبلاد الشام والعراق ، مما يدل على ضعف السلطات العثمانية ، الامر الذي أتاح لهؤلاء المغامرين الاغراب من المماليك التحكم في هذه الاقطار(١) .

٢ ـ الامكانات العسكرية للقوات العثمانية في بلاد الشام :

لاتوجد معلومات دقيقة حول مستوى تدريب هذه القوات . ونظرا لكون انضباطها وفاعليتها القتالية متدنيين ، فمن الممكن القول إن تدريبها ، كان هو الاخر ، ضعيفا في أحسن الحالات . يضاف الى ذلك أن عددا من غير المؤهلين ، من المسنين والاطفال ، انتسبوا الى طائفة الانكشارية للتمتع بالمرتب (٢) . كما أن القلاع التي يفترض أن يتم التدريب فيها لم تكن مراكز عسكرية بالمعنى الصحيح ، اذ أصبحت مراكز تجارية للعسكريين والمدنيين على حد سواء . ومع ذلك ، اقيمت الاستعراضات العسكرية قبيل التوجه الى الحملات ، كما حدث ، مثلا ، في ساحة

---

١ ـ للحصول على معلومات اكثر حول المماليك في هذه الاقطار ، انظر كتابينا : بلاد الشام ومصر ، ١٥١٦ ـ ١٧٩٨ ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٦٨ ، والعرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ .

٢ ـ انظر ، مثلا ، ابن الصديق ، الاوراق ، ٢٥ ب ، ١١٠ ب .

المرجة بدمشق ،أو بمناسبة سفر قافلة الحج .

وتوزعت القوات الانكشارية على فرق أطلق على احداها بالتركية « اورطه » وأحيانا « اوضه » ، أي غرفة ، نظرا لاقامة الاورطة في غرفة ، اي مهجع . وبسبب الفوضى التي أصبحت عليها الاورطة في أواخر عهد الانكشارية ، فقد أطلقت لفظة الاورطة على مجموعة من الاشرار العابثين بالنظام . وانتظم السباهية الفرسان في فرقة اطلق عليها الآي ، وتراسها الآلاي بك ، في حين عرف قائد الانكشارية بالاغا .

وانتظم الجنود وراء حامل العلم ، أي البيرق ، وعرف هذا تبعا لذلك بالبيرقدار ، واشير الى جماعته اختصارا بالبيرق . واختلف عدد القوات التي تألف منها البيرق ، من مكان الى آخر ، ومن زمن السلم الى زمن الحرب . وذكر ان عدد البيرق في دمشق في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، كان حوالي خمسين شخصاً (١) ، في حين ذكر ان عدده ، في النصف الثاني منه ، بلغ عشرة انفار (٢) .

واستخدم الجنود ، أثناء الحملات ، الطبول والابواق ، كما هتفوا بالشعارات الدينية المناسبة ، وباسم السلطان أو الامير ، لتحريض الفعالية القتالية واستثارة النخوة لدى الافراد .

وأدى عدم تعرض بلاد الشام الى عدوان خارجي ، بعد احتلال العثمانيين لها ، الى تقاعس القوات العثمانية فيها . كما أن تسرب السكان المحليين الى الطائفة الانكشارية،التي عرفت باليرلية ، تبعا لذلك، جعل هذه القوات تدافع عن مصالحها المحلية بأكثر مما تدافع عن مصالح الدولة . ولهذا لم تكن للانكشارية الدمشقية ، مثلا ، رغبة بقتال فخر الدين المعني الثاني الذي ثار على الدولة . ونتج عن عدم تقيد الانكشارية اليرلية بالاوامر العثمانية الى ظهور فئة من بينهم ، تمردت حتى على

---

١ ـ محمد بن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية ، جزءان مخطوطان ، مجموعة برلين ، الارقام : 9479. we. II. 1114, 9480, we. II. 1115 : انظر : ج ١ ، الورقة ، ٧٢ ب .

2 - C. F. Chasseboeuf, Comte de volney, **Voyage en Egypte et en Syrie**, ed. J. Gaulmier, Paris, 1959, p. 235.

رؤسائها ، وعرفت بالزرب أو الزرباوات ، كما أشار اليهم احمد البديري الحلاق . والتسمية تركية ذات أصل يوناني (zorba) ، تعني الفوضوي .

ولم تكن القوات المرتزقة باحسن تنظيما ، أو طاعة ، أو فعالية عسكرية من القوات الاخرى ، بل مجرد أرقام للاخافة أكثر منها للنصر . وكان همها الرئيسي الحصول على أجورها وما تتوقعه من غنائم . وحين هاجمت قوات علي بك المملوكي ، بقيادة محمد بك ابي الذهب ، دمشق، واستولت عليها في ٨ حزيران ١٧٧١ ، لمدة عشرة ايام ، اخرجت القوات المرتزقة ، التي استؤجرت للدفاع عنها ، الى ساحة المعركة بالعصا ، وسرعان ماارتدت لتنهب أحياء دمشق(١) .

ولم تكن هذه القوات الوحيدة التي تهمها الغنائم . فقد عمد بعض ولاة دمشق الى توقيت حملاتهم على المتمردين في الريف التابع لهم اثناء فترة الحصاد ، في محاولة مدروسة للاستيلاء على الغلال وبيعها لحسابهم وليس لغرض استراتيجي صرف في تدمير موارد العدو(٢) .

ولم يكن تنوع القوات العثمانية مصدر قوة لها ، ولم تتنافس فيما بينها بشكل بناء ، أو تتبارى في اثبات قدرتها . وقد أوجد هذا التنوع منافسة مميتة بين الفئات العسكرية الى درجة أن الاختلاف والاقتتال كثيرا ما وقعا بين هذه الفئات اثناء خروجها في الحملات ، مما عطل فعاليتها (٣) . ولم تكن فكرة الوطن والوطنية قد ظهرت بعد ، اذ ان هذه المفاهيم قد شاعت في القرن التاسع عشر . كما أن فكرة الجهاد لم تكن واردة هي الاخرى نظرا لان اعداء الدولة ، من ثائرين ومتمردين ، كانوا هم ايضا مسلمين،واكثر ماوصم به أعداء الدولة أنهم خوارج . واستحثت السلطات العثمانية الجنود والشعب للدفاع عنها باسم الطاعة لله ورسوله والسلطان العثماني،وأفلحت هذه الدعوى في حث السكان على نجدة قافلة

---

١ ـ انظر تفاصيل ذلك في مخطوط : حسن الشهير بابن الصديق ، غرايب البدايع وعجايب الوقايع .

٢ ـ انظر مثال ذلك البديري ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ؛ بريك ،٤٥ ، ٤٩ .

٣ ـ انظر نماذج من ذلك في ابن الصديق ، الورقة ، ١٧ ب ، ٤٣ ب .

الحج حين تعرضها للمخاطر . وغالبا مانشر محمل الحج لينضوي المتطوعون تحته لانقاذ القافلة . ولكن طاعة الشعب لم يسهل الحصول عليها لشن الحملات العسكرية ، وحين تعرض أفراد الشعب للقتل . ونلاحظ أن الدولة ، في فترة القوة ، في القرن السادس عشر ، كانت تأمر فتطاع ، ثم قامت ثورات العساكر والامراء ضدها في القرن السابع عشر ، وانتشرت الثورات في القواعد الشعبية في القرن التالي . ولم تعد الدولة العثمانية ، بفساد ادارتها ، وولاتها ، وجيشها ، تستقطب ولاء السكان المحليين ، فعمد هؤلاء الى الانتماء لمنظماتهم الشعبية ، كالنقابات الحرفية وتنظيمات شباب الاحياء ، ونقابات الاشراف ، وغيرها للدفاع عن مصالح الشعب ضد الظلم والابتزاز الذي مارسة الموظفون العثمانيون .

٣ ـ اسلحة القوات العثمانية في بلاد الشام :

استخدم تعبير « ذخيرة » ، في بلاد الشام للدلالة على مؤونة الجيش، من قمح وشعير وبقسماط (الواح من الكعك الجاف) وغيره . واستخدمت آنذاك الكلمة التركية « جبخانة » للدلالة على السلاح ومستلزماته . واشير الى البندقية (وهي مشتقة من كلمة بندق الذي شابهه الرصاص باستدارته) بالكلمة التركية تفنك ، وعرف حاملها بالتفنكجي . واستخدمت ، احيانا ، كلمة بارودة ، أو بارود ، للدلالة على البندقية . وعرف حامل البندقية بالبواردي أو باختصار ، بارود. اما البارودي فهو صانع البارود والبندقية وبائعهما . واستخدم تعبير (بندقجي) لصانع البندق ، والبندقية ، وبائعهما . واشير الى قنبلة المدفع ، وهي اما من الحجر او الحديد ، باسم قنبرة او قلة (جمعها قنابر وقلل) ، وعرف صانعها بالهواويني ، لاستخدامه الهاون في صناعتها . وكان الغرض منها هدم ما تقع عليه .

وتنوعت الاسلحة التي استخدمتها القوات العثمانية في بلاد الشام ، وتراوحت من الخنجر الى مدفع الميدان الذي جرته الحيوانات. واشتملت على الفأس ، والبلطة ، والدبوس ، بالاضافة الى السيوف ، على أنواعها ، والرماح . ومن الاسلحة النارية الطبنجة (واستخدم هذا التعبير التركي بالعربية ايضا) ، والبارود الطويل ، وهو بندقية ذات نصل طويل ، استخدمت ، كما يبدو ، في بلاد الشام ، في النصف الثاني

من القرن الثامن عشر ، من قبل التفنكجية . ولم تفد التروس في صد الاسلحة النارية ، لان هذه كانت تثقبها (١) . ومع ان البدو استخدموا الاسلحة النارية ، فان سلاحهم التقليدي ، المقلاع ، كان شديد الفعالية لحذقهم في استعماله . وكانوا عادة يربطونه على خصورهم .

وفي معارك المواجهة والالتحام تخلى العساكر ، في العادة ، عن اسلحتهم النارية ، لعدم توفر الوقت لحشوها واشعال فتيلها ، واستخدموا السيوف . والسيف الجيد كان ذا قيمة عالية ، وقدر ثمنه بضعف قيمة البندقية(٢) . ولا غرابة ان الدولة كانت تقدمه لكبار القادة حين تكريمهم ، على العادة القديمة . ويدل هذا على احترام السيف لدى العرب والمسلمين،على حد سواء،منذ ان كان الفرسان عماد الجيش. ورغم ان العثمانيين بنوا امجادهم العسكرية وكسبوا فتوحاتهم بحسن استخدامهم للسلاح الناري ، الذي الم يجارهم اعداؤهم ، من صفويين ومماليك ، في استخدامه ، بقي السيف يتمتع بتكريم كبير لديهم(٣) .

وكان على الفرسان ، الذين استخدموا السلاح الناري ، ان يترجلوا

---

١ ـ كامل الغزي ، ج ٣ ، ٢٨٣ ؛ ابن الصديق ، الورقة ١٠٠ ، أ .

٢ ـ سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل ٥٧ ، ص ٧ ، الوثيقة ذات التاريخ ١ ذي الحجة ١١٣٥ / (٢ ايلول ، ١٧٢٣) ، ص ٨ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٦ ذي القعدة ١١٣٥ / (١٨ آب ١٧٢٣) .

٣ ـ نذكر بهذه المناسبة الحادثة التي جرت بين الامير المملوكي كرتباي والسلطان سليم الاول العثماني ، عقب احتلال العثمانيين مصر ، ومثول كرتباي الاسير امام السلطان سليم ، قال كرتباي لسليم : « انت اتيت لـك عساكر من اطراف الدنيا من مصاري ومن روم وغيرها وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقاة عساكر الاسلام وهي هذه البندقية التي لو رمت بها امراة لقتلت بها كذا كذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا اليه ولكن نحن قوم لانترك سنة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهي الجهاد في سبيل الله بالسيف » ، انظر : احمد بن زنبل (الرمال) ، (تاريخ مصر) ، مخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ ، برقم Cod. Arab. 411 ، الورقة ، ٤٥ آ .

ليحسنوا استخدامه (١) . وفي أواخر الخمسينات من القرن الثامن عشر، ادخل عبد الله باشا الجتهجي نوعا خفيفا من المدافع ، عرف بالشواهي ، حمل على ظهر الجمال ، واستخدمه عنصر راكب واحد . ومن مميزات هـذا السلاح ادارتـه بسهولـة الى الجانبين ، ممـا اعطى مرونـة في التسديد (٢) .

واستخدمت المدافع ، التي ترمي عادة القنابر الحجرية او المعدنية، في تهديم اسوار المدن والقلاع ، او في نسف المتاريس في الشوارع ، او في قذف تجمعات العـدو . واثناء حصار المدن كانت تدعم الاسوار مـن الداخل بالخشب والحجارة والتراب . ومع ذلك ، لم تقو هذه على الصمود في وجه المدافع الجيدة (٣) .

ولم تكن جميع المدافع في حالة جيدة ، كمـا انها لم تستخـدم جميعها بمهارة . ومثال ذلك المدفع الذي اخذ من قلعة صيدا واستخدمه العثمانيون في حصار قلعـة ارنون ، الخاضعة لفخر الدين المعني الثاني، وكان « كبره خارج عن الفهم وفي حال وصوله ضربوا به مرتين وانفزر وتعطـل أمرهـم حيث انكسر » (٤) . وتبدو قلة المهارة في استخـدام المدافع في محاولة محمـد بك ابي الذهب ، قائد القوات المملوكيـة ، اخضـاع قلعة دمشق ، التي بقيت موالية للعثمانيين ، بعد احتـلال المماليك المدينة في ٨ حزيران ١٧٧١ . فمن تسع وعشرين قنبرة اطلقتها مدافعه على القلعـة اصابتها خمس قنابر فقط اصابات مباشرة . ويصف ابن الصديق ذلك بقوله « ضرب قنبرة على القلعة علة الى الجو ووقعت بيت الترجمان فضرب الثانية فوقعة في القباقبية وضرب الثالثة وقعة في حارة اليهود فضرب الرابعة فوقعة بيت القطب ... (ثم عاد) .. فأمر الطوبجي ان يضرب القنابر بالليل فضرب خمسة وعشرين قنبـرة

---

١ ـ الصفدي ، ١٨٧ ، انظر وصفـا للبندقية ، ووزنها ، وحشوها ، وطريقة التسديد بها في اواخر الخمسينات من القرن السابع عشر في كتاب :
Jean de Thévenot Relation d'un voyage au Levant, 3 vols., Paris 1664: Vol. I, p. 138.

٢ ـ البديري ، ص ، ٢١٨ ، ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ٨٢ .
٣ ـ ابن الصديق ، الورقة ، ٤٦ آ .
٤ ـ الصفدي ، ١٦٠ ـ ١٦١ .

منها ثلاثة في القلعة وستة وقعوا في الخندق وثنتين وقعوا في الاموي وواحدة بيت مروان بيك وواحدة بيت السيد احمد ابن زميته وواحدة وقعت في حنك البوابة شيت باب البريد وواحدة وقعت قبال بيت ابن القباني في طريق السلطاني » (١) . وذكر أيضا ان عثمان باشا الكرجي والي دمشق ، الذي كان في يافا عند غزو قوات علي بك المملوكية لبلاد الشام في ١٧٧١ ، تراجع عنها باتجاه دمشق ، ورمى بمدفعين كانا بصحبته في بئر لان ثقلهما اعاق سرعة تراجعه (٢) . وعندما لم تكن هناك من حاجة لاستخدام المدافع فانها وضعت في القلعة . ولم يقتصر استخدام المدافع على القتال اذ كانت تطلق ، بدون قنابر ، في المناسبات ، كاعلان صوم رمضان ، او للاحتفال بنصر ، او لاعلان قدوم زائر كبير او انباء سارة . ويشار الى النار هذه بأنها « شنك » ، وهي محورة عن التركية « شنليك » .

ولم يسمح للقوات النظامية بحمل سلاحها الا في اوقات الحرب . اما القوات المرتزقة فحملت سلاحها معها ، لانها كانت تبيع خدماتها . وبازدياد فوضى القوات وعدم الامن ، في القرن الثامن عشر ، حملت معظم القوات سلاحها معها . وبلغ الامر ، في ذلك القرن ، ان الحرفيين حملوا السلاح(٣) ، للدفاع عن انفسهم ازاء انعدام الامن . وتسابق الناس آنذاك لاقتناء السلاح وحمله .

وكانت شحنات الاسلحة والذخيرة تصل بلاد الشام من اوروبا ، وخاصة ايطاليا ، او من استانبول ، بطريق البحر ، وذلك اما للاستعمال المحلي ، او لنقلها الى الجبهة مع بلاد فارس . كما انه جرى تصنيع بعض الاسلحة محليا . ومن الاسلحة المصنعة محليا السيوف وغيرها من السلاح الابيض ، ومستلزمات الخيول ، من نعال ومسامير وغيرها ، وكذلك البنادق . واستخرج الحديد من امكنة متعددة في بلاد الشام ، وخاصة في جبل لبنان (في البترون ، وكسروان ، والمتن ، وعكار) ، وكذلك في حوران ، قرب عجلون ، وفي جبل الاقرع ، وضواحي حلب . وكانت صناعة الحديد في لبنان ناشطة جدا في القرن التاسع عشر ،

---

١ ـ ابن الصديق ، الاوراق ، ٥٨ آ ـ ٥٨ ب .
٢ ـ المصدر السابق ، الورقة ، ١٧ ب .
٣ ـ البديري ، ٢٣٤ .

ونافست الحديد الاجنبي (١) . وقد استورد الى بلاد الشام ، في القرن السادس عشر ، الفولاذ الهندي ، على شكل قضبان ، واستخدمته طائفة الخناجرية والسيوفية في حماه (٢) . وبادخال الحديد السويدي الى بلاد الشام في القرن التاسع عشر اصيب الانتاج المحلي بضربة كبيرة .

وقبيل استغلال مناجم الفحم في بلاد الشام ، ابان حكم محمد علي باشا الالباني (١٨٣١ — ١٨٤٠) ، استخدمت الاشجار في صهر الحديد واستخراجه . ولجأ امير جبل لبنان ، بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ — ١٨٤١) ، الى السخرة ، أي مصادرة الناس بالقوة وبدون اجرة ، لتشغيلهم في انتاج المعادن .

وعرف صانع البنادق والرصاص (البندق) في دمشق باسم البندقجي ، وكان يقوم بعمله سرا في منزله خوفا من السلطة . ويباع البارود في دكاكين متفرقة في انحاء المدينة ، وليس ، كما يمكن الظن ، في سوق السلاح . ووجود هذا السوق سابق على استخدام السلاح الناري في العهد العثماني . وكان في الاصل يبيع الاسلحة المعدنية البيضاء ، كالسيوف والرماح والخناجر وغيرها . ولم يمكن بيع البارود فيه نظرا لامكانية اشتعاله وسرعة انتشار ناره وانفجاره ، ولهذا توزعت دكاكين بيعه على انحاء المدينة ، عند بواباتها ومداخلها الخارجية ، حيث يتلقف اصحاب الدكاكين البارود من القرويين الذين يأتون به الى المدينة لبيعه .

ويبدو ان صناعة البارود لم تكن ممنوعة على الشعب ، لان استخدام البارود لم يقتصر على الاسلحة . فقد استخدم في المقالع والاعياد ، كما ان ملح البارود استخدمه الصياغ في اعمالهم . وتجري صناعة البارود في الريف على اسس بدائية موغلة في القدم . ونتج عن

---

١ — عيسى اسكندر المعلوف ، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، بعبدا ، ١٩٠٧ — ١٩٠٨ ، ص ، ٥١٣ — ٥١٤ ؛ الاب لويس شيخو ، « المناجم في الدولة العلية » ، مجلة المشرق ، جزء ٥ (١٨٠٢) ، ص ٧٧١ — ٧٧٢ ؛ الاب هنري لامانس ، المعادن في لبنان ، المشرق ، جزء ٨ (١٩٠٠) ، ص ٩٤٤ — ٩٤٥ .

٢ — انظر : عبد الودود محمد يوسف ، « طوائف الحرف والصناعات » ، مجلة الحوليات الاثرية ، دمشق ، ١٩ (١٩٦٩) ، ص ٩٩ .

ايواء الاغنام ، وخاصة الماعز ، في الكهوف في الشتاء ان تفاعل بولها مع الحجر الكلسي ، وتشكل عن ذلك ، بفعل الحرارة التي تصدر عن هذه الحيوانات ، طبقة من نترات البوتاسيوم على جدران وارض الكهف . وعندما تكون الرطوبة والحرارة عالية ، فان سمك هذ الطبقة يبلغ عدة سنتمترات ، ويمكن رؤيتها متدلية في الكهوف ذات الجدران العالية. وتجمع هذه المادة ، ثم تنقى ، عن طريق وضعها في اوعية خشبية ، توضع في حلل ممتلئة بالماء ، ثم تعرض للشمس او للتسخين ليصار الى فصل الاوساخ عن نترات البوتاسيوم . وتعادالعملية أكثرمن مرةللحصول على مادة نقية عرفت بملح البارود ، وتوضع ، من ثم ، في أوعية خشبية.

ولصناعة البارود يمزج ملح البارود بمسحوق الفحم ، الذي يستحصل‌عليه بصورة افضل من شجر الصفصاف ، وبكمية من الكبريت، الذي كان يستخرج بكميات جيدة من منطقة رأس العين ومن مفارة شحيرة ، شمال شرقي تدمر . وتكون نسبة هذه المواد الممزوجة : ٧٥ ، ١٥ ، ١٠ بالمئة على التوالي (١) . وتختلف النسب وفق نوعية البارود المراد انتاجه واهداف استخدامه . ويخلط المزيج ببعض الماء ، لتحاشي الانفجار . ثم يدق ، بواسطة مطارق خشبية طويلة ، مثبتة على نابض ، لتمكين الدقاقين من ان يكونوا على بعد مناسب خشية اي انفجار. ودقاق البارود ، بزنوده القوية ، مشهور في الادب الشعبي (٢) . ثم يمد المزيج على شراشف ، ويجفف ، متحولا الى قطع صغيرة ومسحوق ، وهو مايعرف بالبارود . وينخل البارود بعد ذلك ، فالناعم منه يستعمل في البنادق ، والاكثر خشونة في المقالع او الحاجات الاخرى . وللتأكد من جودة البارود يوضع القليل منه في راحة اليد ويشعل ، فان احترق

---

١ ـ انظر حول هذه النسبة : مجلة المقتطف ،المجلد الثاني (١٨٧٧) ، ص ٤٧ . وقد ذكر الرحالة بوركهاردت ، الذي وصف عملية صناعة البارود في قرية شعرا ، في حوران ، التي زارها في عام ١٨١٠ ، ان المقادير هي بنسبة : جزء من الكبريت ، مقابل خمسة ونصف من ملح البارود ، وجزء من فحم الصفصاف . انظر وصفه :

J. L. Burckhardt, **Travels in Syria and the Holy Land,** London, 1822, pp. 114, 250.

٢ ـ تفضل الاستاذ شفيق الامام ، محافظ متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم بدمشق ، فافادني بهذه المعلومات القيمة . فله جزيل شكري ، وتقديري لعلمه .

الى الاعلى فهو جيـد ، وان احرق اليد فهو رديء .

وقـد وجدت كهوف عـدة في مختلف مناطق بـلاد الشام أوت اليها الاغنام والماعز ، كتلك المتاوجدة مثلا في مناطق حلب ، حمـاه ، صيدنايا ، معلولا ، رنكوس ، حوران ، جبل الدروز . ووجد في حمـاه ، حيث تكثـر الاغنـام ، مصنـع رسمي لانتاج البارود تأسس في عهـد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦)، وعمل فيه ستون عاملافي فترة أوجه ، واستخـدم انتاجه في تموين قلاع حماه وحلب وطرابلس وارواد. وقدر انتاجه قبل عام ١٥٩٢ بواحد وخمسين قنطارا في العام ، ثم تناقص عـدد العمال والانتاج في أواخر القرن السادس عشر . وذكر ان أحمـد باشا الجزار ، في نهاية القرن الثامن عشر ، طلب كميات من بارود حماه لاستخدامها في القتال ضد نابليون بونابرت (١) .

وجاء في رواية الرحالة بوركهاردت الذي زار بلاد الشـام في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، ان عدة قرى في حوران زودت دمشق بالبارود ، منها قرية شعرا التي ارسلت سنويا لدمشق مائة قنطـار . وذكر بوركهاردت أيضا ان منطقة اللجاه كانت تنتج البارود الذي بيـع في دمشق وعكا وطبرية (٢) .

وذكر ان مصنعا لانتاج البارود قد وجد في دمشق في النصـف الثاني من القرن الثامن عشر لسد حاجـات الانكشارية(٣) . ووجـدت طائفة (نقابة) لاصحاب حرفة البارودية في دمشق آنذاك(٤) . ومـن

---

١ – انظر حول مصنع بارود حماة : عبد الودود يوسف ، « صناعـة البارود في حماة في القرن السادس عشر » ، مجلة الحوليات الاثرية (دمشق) ، مجلد ١٨ ، ص، ٦٧–٨٢ ؛ وانظر للمؤلف نفسه : « ارتباط لواء حماة بمقاومة حملة نابليون علـى مصر وسورية » ، مجلة الحوليات الاثرية ، مجلد ١٧ ، ص ، ٣٤–٦٨ .

(٢) انظر : Burckhardt, pp. 115, 214.

٣ – فخري البارودي ، مذكرات البارودي ،جزءان،دمشق ، ١٩٥١– ١٩٥٢ ،جـ١،٩٠.

٤ – انظر مقالنا :

« The law - Court registers of Damascus with special reference to craft corporations during the first half of the eighteenth century », dans **Les Arabes par leurs archives (XVIe - XXe)**, par J. Berque at D. Chevallier, éditions du CNRS, Paris, 1976, pp. 141 - 159.

الممكن ان افرادها عملوا في انتاج البارود والبنادق ، التي شاع اقتناء الناس لها في القرن الثامن عشر . وفرضت الدولة في منطقة حمص على القرويين ، في أوائل ذلك القرن ، ان يقدموا لها بندقية عن كل فدان ، في محاولة منها لجمع السلاح واقامة الامن في الريف(١) . وكان التجار الاجانب يزودون السكان المحليين بالبنادق . وقد اتهم التجار الفرنسيون بتزويد ظاهر العمر بالبارود والرصاص (٢) .

٤ ـ النشاطات الاقتصادية والاجتماعية للقوات العثمانية :

قام الانكشارية في بلاد الشام بنشاطات اقتصادية متنوعة ، فتعاطوا الربا ، وانتسبوا الى الحرف ، وعينوا كملتزمين لجمع الضرائب ، أو مساعدين للملتزمين ، كما عينوا متولين وناظرين على الاوقاف ، وشغلوا وظيفة المحتسب ، وعملوا في مصلحة الجمرك في حلب . وسيطروا ، في حلب ايضا ، على طائفة القصابين التي كانت تتمتع بثروة كبيرة ، كما عين احد افرادهم هناك شيخا لطائفة الصاغة . وعلى غرار معاصريهم من الاعيان ، اتخذ الانكشارية المماليك ، مما يدل على اهمية ثروتهم ومكانتهم الاجتماعية . واهم عمل قام به الانكشارية في حلب اعطاء القروض للسكان ، بما فيهم اليهود والفرنجة . ونشطوا في هذا المجال في الريف حتى حدود سلقين وحارم التابعتين لولاية حلب . واستخدم الفلاحون بعض هذه القروض في تسديد الضرائب للدولة . وكثيرا ما اعطى الانكشارية الفلاحين القمح والشعير بموجب قروض عقدوها معهم . ومقابل ذلك رهن الفلاحون الارض او غلالها حتى ايفاء ديونهم ، واشير الى هذا الدين في سجلات المحاكم الشرعية بانه دين شرعي . وكانت مدته عادة من ثمانية الى عشرة اشهر ، يمكن تمديدها . وغالبا ما استملك الانكشارية اراضي الفلاحين الذين قصروا في الوفاء بديونهم . ونظرا لاتساع مجال نشاطهم الاقتصادي ، عمد الانكشارية الى استئجار

---

١ ـ انظر : مذكرات احد ابناء حمص عن حمص (او تاريخ مدينة حمص ١١٠٠ ـ ١١٣٥/ (١٦٨٨ ـ ١٧٢٢) ، مخطوط في الجامعة الاميركية ببيروت ، برقم ٩٥٦ ، انظر : ص ٣٥٣ . وقد حقق هذا المخطوط السيد عمر العمر ونال عليه شهادة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر من جامعة دمشق في عام ١٩٧٦ .

2 - Affaires Etrangères, **Mémoire B'** 420 : Istanbul, 1 mai, 1743.

الخانات في حلب ، كما وظفوا اموالهم باستئجار البيوت والاراضي والمنتجات ، وكذلك الطواحين (١) .

ونتج عن انشغال الانكشارية بالقضايا الاقتصادية عزوفهم عن القيام باي نشاط عسكري على ساحات المعارك ، ولهذا كانوا يماطلون في السفر في الحملات ، واذا ما سافروا تلكأوا في القتال وانسحبوا . ويلاحظ ان نشاط الانكشارية الاقتصادي في الريف بدأ يتضاءل منذ حوالي منتصف القرن السابع عشر بسبب فقر الريف ، واندثار عدد كبير من القرى نتيجة ابتزاز الانكشارية لاموال سكانها ، وكثرة تعدي البدو عليها. وتمركز نشاط الانكشارية في القرن الثامن عشر في المدن بصورة رئيسية ، فاحتكروا الحبوب ومواد غذائية اخرى . وفي دمشق سيطر الانكشارية اليرلية على حي الميدان الذي يعتبر الشريان الاقتصادي لدمشق وعنبر حوران والذي كانت تمر فيه قافلة الحج الشامي حيث تزود بالمواد الغذائية وتحصل على احتياجاتها الاخرى ، مثل وسائل النقل . ومن هنا كثرة بايكات الجمال في ذلك الحي . وحاول الانكشارية القابي قول ، بدورهم ، الانتساب الى الحرف والقيام بنشاط اقتصادي ، مما اثار حفيظة اعدائهم اليرلية ، وزاد من العداء بين الفريقين .

اما القوات المرتزقة فكانت عنصر فوضى وارباك للحياة الاقتصادية بسبب ابتزازهم المال من سكان المدن والارياف على حد سواء ، وكذلك عبثهم باقتصاد الريف حين طردهم من المدن بعد انتهاء خدمتهم فيها . وكثيرا ما تعاضدت فئات السكان المحليين لمجابهة هذه القوات وطردها ان امكن .

ونتج عن اندماج الانكشارية بالسكان المحليين ان كثيرا من الانكشارية تزاوجوا مع هؤلاء السكان ، واقاموا في بلا دالشام ، واصبح عدد منهم ومن ابنائهم من علمائها المشهورين . ولكن صورة الفوضى التي رسختها القوات العثمانية في نفوس الاهلين دامت لفترة طويلة . واصبحت كلمة انكشاري مرادفة لفوضوي حتى ما بعد القضاء على الانكشارية في الامبراطورية العثمانية في عام ١٨٢٦ على يد السلطان محمود الثاني .

---

١ ـ تفص سجلات المحاكم الشرعية في حلب ودمشق باخبار النشاط الاقتصادي للانكشارية .

وقد تعاظمت النتائج السلبية لتواجد القوات العثمانية في بلاد الشام ، من الناحية الاجتماعية ، في القرن الثامن عشر ، بسبب ضعف رقابة الدولة عليها ، وفاقت جميع ايجابيات وجودها . ويذكر أن أمير الحج الشامي عين ، في القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر ، من بين الامراء المحليين ، الذين كانوا حكاما لصنجق أو اكثر من صناجق ولاية الشام ، وهذا يعنى انه اقام والقوات التي وضعت تحت تصرفه لحماية قافلة الحج في مركز حكمه خارج دمشق . وحين حان موعد خروج الحج اتى مع قواته الى قبة الحج خارج دمشق ، وتسلم الامارة دون أن تدخل قواته دمشق وتزعج أهلها . وحين اضعف هؤلاء الامراء المحليون وقضى على بعضهم بنتيجة حروب فخر الدين المعني الثاني لهم ، عمدت الدولة الى تعيين انكشاريين من دمشق أو موظفين عثمانيين امراء للحج ، وعهدت اليهم بحكم صنجق او اكثر في ولاية الشام ، كما كان الامر بالنسبة للامراء المحليين . وحين لم يعين الانكشاري او الموظف ، امير الحج ، حاكما لصنجق اقام في دمشق مع القوات التي خصصت لحماية القافلة . واصبح الحال كذلك حين بدء بتعيين ولاة دمشق امراء للحج في الربع الاخير من القرن السابع عشر . ونتج عن الظلم الذي مارسته هذه القوات ، ومعظمها مرتزق غريب ، في دمشق ، ان طلب كبير علمائها ، جد الاسرة المرادية ، مراد المرادي ، من السلطان العثماني « برفع امارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدائد بها »(١) . وبالفعل رفع السلطان الامارة عن دمشق وعين أميرا تلك السنة ، ١١٠٢/١٦٩٠ ، شريف مكة المعزول يحيى بن بركات ، واعطاه حكم صنجق القدس ، حيث اقامت قواته . ولكن مهاجمة البدو للقافلة تحت امرته ، وعزل يحيى ، في اعقاب ذلك ، اعاد الامارة الى دمشق حيث بقيت طيلة الحكم العثماني لان واليها تسلم امارة الحج باستمرار .

ونتج عن تواجد الجنود في دمشق باعداد كبيرة لحماية الحج، وبقائهم فيها بعد ذلك ، اضطراب الحياة الاجتماعية نظرا لضعف هيبة الدولة

---

١ ــ انظر : المرادي ، مطمح الواجد ، الورقة ، ٣٧ ب .

العثمانية . والى جانب ظهور الزرباوات في صفوف اليرلية الذين روعوا الاهلين وزعمائهم ، فقد تكاثر وجود الجنود المرتزقة ومعظمهم من الفوضويين . وكثرت (بنات الخطا) ، تبعا لذلك،برفقتهم .ووصف أحمد البديري الحلاق في مذكراته اخبارهن وما سببنه من انهيار في الاخلاق العامة . ومن أسباب تكاثر (بنات الخطا) هؤلاء ، الضائقة الاقتصادية التي شملت دمشق في القرن الثامن عشر والتي ادت الى حوادث متعددة من الانتحار ، إما لضيق ذات اليد أو حزنا على انهيار الاخلاق العامة .

وكانت نتيجة الصراع بين القوات العثمانية ، بعضها مع بعض ، وتعديها على السكان المحليين ، وعجز السلطات الحاكمة عن توفير الحماية للسكان ان عمد هؤلاء الى منظماتهم الشعبية ، مثل الانكشارية اليرلية والطوائف الحرفية ، ونقابات الاشراف ، ومشايخ الحارات ، وابناء البلد ، للدفاع عنهم . ولكثرة ما اعتاد السكان على رؤية المظالم فقدوا الحس بالعدل . وقد ذكر البديري في احداث عام ١١٦٢/١٧٤٨ ،بمناسبة عزل قاضي دمشق العثماني ، « ولما كان لايأكل الرشوة ولا يميل في دعوى مالت اهل الشام عليه مع زوجته حتى سعوا بعزله »(١) . وفي مناسبة اخرى وصف الاخباري الدمشقي موقف سكان دمشق من واليهم عبد الرؤوف باشا (١٨١٧ ــ ١٨٣١) بقوله : « ومن عدله الزابد طمعت فيه أهل الشام »(٢) .

---

١ ــ البديري ، ١٣٢ .

٢ ــ ميخائيل الدمشقي ، تاريخ حوادث الشام ولبنان ، ١٩١٧ ــ ١٢٥٧ / ١٧٨٢ ــ ١٨٤٢ ، تحقيق لويس معلوف ، بيروت ، ١٩١٢ ، ص ٤٩ .

الحركة العربية
خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها
١٩٣٩ - ١٩٥٢

د . خيرية قاسمية

استاذة مساعدة في قسم التايخ بجامعة دمشق

لقد كان للاحداث التي تلت الحرب العالمية الاولى في المنطقة العربية، من اجراء التقسيمات السياسية ورسم الحدود وعدم تحقيق الاستقلال واطماع بريطانيا وفرنسا والصهيونية اثرها الفعال على مجرى الحياة السياسية وعلى اهداف الحركة العربية طيلة الفترة بين الحربين ، كما اثرت على صياغة اوضاعنا الحاضرة . ذلك ان تسويات مابعد الحرب التي جرت بطريقة مغايرة لما قطع للعرب من تعهدات قد هددت الفكرة القومية التي انتشرت قبل الحرب العالمية الاولى ، التي تؤمن بوجود امة عربية ترتكز على لغة وتراث وتاريخ وتطلعات ومطالب مشتركة ، ونشأت نظم سياسية مختلفة كان من شانها ان تؤدي الى تجزئة الحركة العربية . وشجع هذا الاتجاه الحكم الاجنبي وبعض القيادات المحلية . وكافحت الفكرةالقومية لتتجاوز الحدود الضيقة ، وتحاول الابقاء على فكرة الوحدة حية ، وشغل هذا السعي الجماهير وقادة الفكر وزعماء النضال القومي رغم انصراف اجزاء الوطن العربي المتعددة الى قضايا استقلالها الوطني الذي هو وليد ظروفها الخاصة .

ويمكن القول اجمالا ان الحركة العربية في الفترة بين الحربين ، ورغم ماتعرضت له من نكسات وتراجعات استطاعت ان تفرض نفسها كحقيقة واقعة فوضعت نظريتها القومية ، وواجهت خطرين مترابطين ؛ التجزئة والاحتلال وحققت عددا من المكاسب على الصعيدين النضالي والقومي

الى ان اندلعت الحرب العالمية الثانية لتوجه الحركة العربية نحو مسار جديد تبعا للتغيرات المستجدة .

١ ـ سنوات الحرب العالمية الثانية وأثرها على الحركة العربية :

لم تكن الاوضاع العربية عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية توحي بالتفاؤل للفئات الوطنية ، اذ بعد ربع قرن من الكفاح من اجل الاستقلال والوحدة ، كانت القوات الاجنبية لاتزال تسيطر على المنطقة العربية بأسرها اما مباشرة او من خلال معاهدات تضمن مصالحها الحيوية خلف واجهة الحكومات المحلية . ورفضت بريطانيا تقديم اي تنازلات بشأن فلسطين ، رغم توقف اعمال الثورة بعد اعلان الحرب ، واثار وصول تشرشل للرئاسة مخاوف العرب لانه معروف بميوله الصهيونية، واستمر اليهود في تعزيز مواقعهم في فلسطين عن طريق الهجرة غير المشروعة والتدريب العسكري . ووجدت فرنسا في ازدياد التوتر العالمي فرصة التقوية قبضتها على مناطق احتلالها في سورية ولبنان وحتى بعد اجتياح المانيا لاراضيها في جزيران ١٩٤٠ ظلت تسيطر عسكريا بقواتها الموالية لحكومة فيشي التي قامت في ظل الاحتلال النازي . واعلنت السلطات الفرنسية في سوريا ولبنان انها مصممة على « حمل رسالتها في شرقي المتوسط » ، وكذلك فقد حذرت بريطانيا من ان تستخدم سورية ولبنان قاعدة لأية دولة معادية .

وكان اهتمام بريطانيا بتأمين وجودها في المشرق العربي بالغا وقررت في منتصف عام ١٩٤٠ ان يكون الدفاع عن قواعدها في المنطقة تاليا في الاهمية للدفاع عن الجزر البريطانية ، وتحولت المنطقة العربية الى ميدان لحرب لامصلحة لشعوبها فيها وتمركزت فيها جيوش الحلفاء بحيث جعل انتفاضها امرا اقرب الى المغامرة ،كما وضع اقتصادها وطرق مواصلاتها وخدماتها تحت تصرف قوات الحلفاء .

وقد اتخذ العرب موقفا سلبيا من مجهود الحلفاء الحربي ، كما ان الضائقة الاقتصادية زادت من مخاوفهم ، بالاضافة الى عدم ثقتهم بأن انتصار الحلفاء كفيل بتحقيق اماني العرب القومية ، وكان عدد المستعدين للوثوق بوعود الحلفاء قليلا ، وزادهم استياءً ما عانوه خلال

سنوات ماقبل الحرب . وكانت المحصلة الطبيعية لذلك تصاعد الاتجاهات القومية وخاصة لدى العناصر المناضلة الشابة وتطلعها الى اساليب عمل جديدة ، ومصادر بديلة للدعم .

واصبح العراق المركز الحقيقي لهذه الاتجاهات الجديدة ، وكان العراق منذ سنوات ماقبل الحرب يتمتع بحرية في العمل تفوق غيره من الاقطار العربية ويعود ذالك لنيله نوعا من الاستقلال الذاتي وتوفر نواة جيش مدرب ، وكذلك فقد لجأ اليه قبل الحرب عشرات من السياسيين كموظفين ومعلمين .

وفي تشرين اول ١٩٣٩ ، قدم الى بغداد مفتي فلسطين من مقر اقامته الجبرية في لبنان وعزز قدومه من اتجاه الحركة القومية المعادية لبريطانيا ، ودعم موقف المفتي مجموعة من الضباط العراقيين بقيادة صلاح الدين الصباغ . وبتولي رشيد عالي الكيلاني لرئاسة الوزارة ٣١ آذار ١٩٤٠ وصلت الحركة اوجها . وفشلت تحذيرات مدرسة نوري السعيد الموالية لبريطانية من خطر الاتجاهات المتطرفة وحاول الضغط على الحكومة البريطانية لاصدار تصريح واضح يضمن تنفيذ التعهدات السابقة بشأن الحكم الذاتي في فلسطين وسورية ، ويظهر العطف على آمال العرب بالوحدة ، ولكن الحكومة البريطانية كانت تستبعد تقديم تنازلات سياسية وترى البديل في تعزيز النشاطات الدعائية .

وبدات الفئات القومية في العراق تتطلع الى قوى المحور لنيل الدعم والمساعدة بصفتها حليفة محتملة في الصراع المقبل من اجل التحرر القومي ، خاصة وان انهيار فرنسا ودخول ايطاليا الحرب قد اعطى انطباعا مؤكدا بنصر المحور . وتشكلت في بغداد لجنة عربية قررت اجراء الاتصالات مع قوى المحور ووضع اسس للتعاون المقبل . وخلال جميع الاتصالات كانت اللجنة تسعى للحصول على دعم لمطالب محددة ، توضح طبيعة الحركة القومية في تلك الفترة ، هذه المطالب هي ، *اعتراف المحور باستقلال البلاد العربية استقلالا تاما سواء تلك التي* استقلت سابقا او تلك التي لاتزال تحت الانتداب او الحماية او الاستعمار، تعهد المحور بالاعتراف بحق البلاد العربية باقامة وحدة قومية والامتناع عن فرض اي انتداب على المنطقة ، عدم الاعتراف بالوطن القومي اليهودي

ودعم حق العرب لايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية وفقا للاماني العربية ، رفض أي مخطط لقوى المحور لفرض نفوذ في مصر والسودان والاعتراف باستقلال البلدين ، منح المصالح الالمانية الافضلية في استثمار بترول العراق ، التمسك بالحياد المطلق ، العمل على اشعال ثورة في فلسطين والاردن عن طريق سورية على ان تمدها مخازن سلاح الجيش الفرنسي الموجودة هناك .

وفي جميع الاتصالات مع قوى المحور جرى التركيز على ضرورة الحصول على تعهد مزدوج يدعم استقلال ووحدة العرب ، فقد كان الوضع العام يشبه الوضع الذي رافق ثورة ١٩١٦ ، الا ان القوميين العرب كانوا اكثر حيطة فأصروا على اخذ تعهدات واضحة ومحددة تشمل كل اقطار آسيا العربية بالاضافة الى مصر والسودان . ورغم شكوكهم بالمخططات الايطالية ، كانوا على ثقة « على الاقل » بامكانية التوصل الى حل مناسب للقضية الفلسطينية عند انتصار المحور ، والذي بدا مؤكدا بعد انهيار فرنسا .

ومع ان قوى المحور كان يهمهما الحصول على موطىء قدم لهما في منطقة الشرق العربي لتهديد المصالح الحيوية البريطانية ، الا ان المانيا احجمت عن القيام بدور فعال في المنطقة ، لعدم تأكدها من قوة العناصر المعادية البريطانيا من جهة ، وكي تتيح لايطاليا مهمة القيام بهذا الدور . وفشلت ايطاليا في الحصول على نفوذ لها في المنطقة لتخوف العرب من نواياهما التوسعية . وعلى اثر التراجعات الايطالية على الجبهة الليبية قامت المانيا باصدار بيان مشترك مع ايطاليا في تشرين اول ١٩٤٠ صيغ بعبارات عامة ليست ملزمة حول العطف على نضال العرب من اجل التحرر ، وكان البيان ادنى بكثير من المطالب العربية . ومنذ كانون اول ١٩٤٠ تولى الالمان المسالة بكاملها بعد ان دعمت بريطانيا مركزها في مصر وزاد ضغطها على حكومة رشيد عالي الكيلاني ، فكان ان وضعت وزارة الخارجية الالمانية مذكرة اكدت فيهما رغبة المانيا القيام بدور رئيسي في المنطقة العربية والى انها تجد في القومية العربية حليفا طبيعيا ، الا ان ايطاليا ظلت على موقفها في رفض الاعتراف بحق العرب بالاستقلال والوحدة .

وتطورت الامور داخل العراق بسرعة ، ففي نيسان ١٩٤٠ قامت حكومة قومية برئاسة رشيد عالي الكيلاني تساندها مجموعة مخلصة من الضباط وابعدت العناصر الموالية لبريطانيا . وكانت هذه الحركة غاية ما وصل اليه المد القومي العربي في هذه الفترة واول محاولة جادة للتخلص من السيطرة الاجنبية . وفشلت الحركة لتدخل بريطانيا العسكري السريع في ايار ١٩٤١ . ورغم مشاعر التأييد التي ابدتها المانيا لدعم الحركة ماليا وعسكريا لم تصل التعزيزات العسكرية في الوقت المناسب لانشغال المانيا باليونان وكريت من جهة ولان العراق كان بعيدا عن المجال الجوي الالماني بسبب حياد تركيا .

مع ذلك فقد كانت الحركة اول ثورة عربية قومية منذ الحرب العالمية الاولى تحدت بريطانيا وتحدت الوضع القائم الذي يكرس التجزئة العربية . ولعبت فيها الفئات القومية في سورية وفلسطين دورا فعالا في اتخاذ القرار واسلوب العمل ، كما دعمها الرأي العربي في كل مكان لاتجاهها الوحدوي . وكان لاخفاق الحركة اثر بعيد في اتخاذ العرب موقفا سلبيا من الحلفاء اثناء الحرب . وقد يكون ضعفها ناجم عن عدم تقدير لحجم قوتها الفعلية ، ومبالغتها في الاعتماد على الدعم الالماني .

وبالنسبة لبريطانيا فقد أكدت لها المؤازرة التي لقيتها الحركة من العرب خارج العراق ، ضرورة ارضاء بعض الاماني القومية بطريقة ما . وكانت قيادة الحركة القومية العربية قد اخذت تنتقل تدريجيا ، الى مصر التي بدأت تلعب دورا اكثر وضوحا في الحركة العربية . ولذا يرى البعض في اخفاق حركة رشيد عالي الكيلاني نهاية لطور « بروسيا العرب » اي الدور العراقي في قيادة الحركة القومية .

٢ ــ ظروف انشاء جامعة الدول العربية :

في الفترة بين الحربين بنت بريطانيا سياستها تجاه تطلع العرب نحو الوحدة على تناقض غريب ، فهي من جهة ترى في قيام وحدة عربية او اتحاد خطرا حقيقيا يهدد المصالح الاجنبية والبريطانية بوجه خاص ، ولذا قاومت كل محاولات الاتحاد بين العرب بعد ١٩٣٠ ووجدت

ان تعزيز القوميات المحلية اقل خطرا . وكان الاعتقاد السائد لدى اوساط الحكومة البريطانية ان السيطرة البريطانية على عدد من الدول اسهل منه على اتحاد عربي ، لان العرب اكثر قابلية للتحكم فيهم لو ظلوا متفرقين . ولكنها من جهة اخرى ترى بأن الحركة الوحدوية لها شعبية وجاذبية وانها اصبحت ظاهرة لايمكن تجاهلها وليس من الحكمة معارضتها علنا أو مناصبتها العداء ، بل يمكن اظهار العطف عليها طالما ظلت حلما او اقتصرت على التنسيق والتضامن في حقول الثقافة .

وقد دلت دراسة اجرتها وزارة الخارجية البريطانية ١٩٣٩ لاعادة تقييم السياسة البريطانية تجاه الوحدة استحالة تحقيق أي نوع من الاتحاد العربي ، رغم كل اواصر الترابط في اللغة والثقافة والدين والاحساس المتزايد بالتلاحم العربي ، والنقمة على التجزئة وسرعة انتقال الافكار ، وانتشار التعليم . وتعليل ذلك كما تقول الدراسة ، هو التنافس بين الاسر الحاكمة وعدم اتفاق العرب على شكل الوحدة ، وعلى زعامتها في المستقبل بالاضافة الى المعارضة الفرنسية والتركية والصهيونية ، ففرنسا تمانع في دخول سورية اي اتحاد عربي ، كما ان تركيا تعترض على قيام دولة عربية موحدة على حدودها وكذلك يتعذر قيام وطن قومي لليهود في فلسطين في حال انضمامها لدولة عربية موحدة .

وحتى عام ١٩٤١ كان خلاصة الموقف البريطاني ، والذي عبرت عنه وزارة الخارجية وممثلو بريطانيا في المنطقة ، في صالح الحجج الداعية لعدم تأييد قيام اتحاد وحتى لو لم تكن هناك معوقات خارجية او داخلية (التنافس بين الاسر) ، لانه لم يكن من المحتمل ان ترغب بريطانيا تشجيع الافكار الوحدوية او الترويج لها او اتخاذ مبادرة التعاطف مع فكرة الوحدة ، لان دولة عربية موحدة تشمل على الاقل آسيا العربية ، ستكون اقل انقيادا للنفوذ البريطاني من عدد من الدول الاصغر والاضعف .

لذا فان انشاء جامعة الدول العربية لم يكن بوحي بريطاني او بمبادرة بريطانية ، بل ساهمت اربعة عوامل رئيسية في خروج الفكرة الى حيز الوجود :

أ ـ الحركة القومية العربية بكل ما تتضمنه من اواصر اللغة والتراث والجوار ووحدة النضال ضد التجزئة والاحتلال . ورغم كل ماتعرضت له الحركة القومية من نكسات في الفترة بين الحربين الا انها فرضت نفسها كحقيقة واقعة جاءت لتبقى ، وشهدت الفترة الذهبية من المد القومي بين ١٩٣٦ ـ ١٩٤١ اشتداد الدعوات التحررية والتوحيدية وانتشار الافكار القومية وتنقل العاملين في حقل الوحدة وزاد من تأجج الافكار ازدهار الدعوات القومية في اوربا واشتداد الخطر الصهيوني وما احدثه رد الفعل العربي من تعميق للوعي القومي ، ثم انشغال الغرب بالتحضير للحرب ، ومن ثم خوضها ، كل ذلك جعل العرب يتحسسون بأهمية مكانتهم ، وفرضت على جميع القوى الخارجية ان تأخذ في حسابها حقيقة الحركة القومية الوحدوية ، عند صياغة سياستها تجاه المنطقة .

ب ـ الدور المتزايد الذي بدات تتخذه مصر في القضايا العربية بعد ١٩٣٦ ، حيث عادت للاهتمام بميحطها الطبيعي في الساحة العربية . وكانت خطة بريطانيا حتى ١٩٤٢ هي ابعاد مصر عن الارتباط بأي اتحاد عربي واشغالها بقضايا داخلية ، وابقاء اهتمامها بالقضايا العربية نظريا ، كما نصح بذلك مايلز لامبسون السفير البريطاني في القاهرة . ولكنها رات صعوبة ابقاء مصر بعيدة من الاهتمام بالقضايا العربية التي اخذت تلعب دورها في السياسة المصرية وخاصة تجاه قضية فلسطين ، فأوقفت بريطانيا مساعي نوري السعيد عام ١٩٤٢ لاتخاذ خطوات جادة نحو اتحاد سورية والعراق نظرا لما اثارته من مشاكل واعتراضات ، ولم تعارض في انتقال الزعامة العربية في مشاورات الوحدة الى مصر ، نظرا لان مصر بابتعادها التقليدي عن القضايا العربية وانشغالها بمشاكلها الداخلية كانت بعيدة عن تنافس الاسر الحاكمة ، بالاضافة الى ان مصر كانت مؤهلة للعب هذا الدور نظرا لمكانتها في الوطن العربي .

جـ ـ الظروف الدولية التي اكتنفت سني الحرب حيث اشتد الصراع بين الحلفاء ودول المحور وتحولت المنطقة بموقعها الاستراتيجي الى احد ميادينه الرئيسية . واصبحت قضيتا التحرر والوحدة لشعوبها محور التركيز فيما سمي « بالحرب الدعائية » التي حاول من خلالها

اطراف الصراع استقطاب شعوب المنطقة باصدار التصريحات والوعود المتعاطفة مع الآمال العربية .

د ـ ادراك السياسة البريطانية المتزايد ضرورة التعامل مع المنطقة كوحدة متكاملة بسبب ضروزات الحرب التي فرضت عليها مزيدا من الاعتماد على موارد المنطقة الذاتية في اطار خطة شاملة للتكامل الاقتصادي . ومن جهة اخرى ادراك بريطانيا قوة الحركة العربية باعتبارها من حتميات التطور السياسي لدول المنطقة ، خاصة بعد ازدياد الحاجة لاستخدام الدعم العربي في مرحلة الحرب خوفا من تهديد مركز بريطانيا الاستراتيجي ولتهدئة الآثار المعاكسة القمع حركة رشيد عالي الكيلاني . وشعرت بريطانيا بعدم جدوى معارضة التطلعات العربية نحو الوحدة والتصدي لها ، بل محاولة توجيهها وفق اتجاهات موالية لحكومة جلالته واتخاذ موقف متعاطف معها في محاولة للالتفاف حولها واستغلالها لخدمة مصالحها الاستراتيجية .

هذا ما اكدته مذكرة ايدن (وزير الخارجية) ١٩٤١/٥/٢٧ تحت عنوان (سياستنا العربية) بانه « نظرا لان العرب متفقون عموما على ان قيام نوع من الاتحاد العربي هو امر مرغوب فيه فلا ينبغي معارضة هذه الآمال المبهمة ، بل ويجب انتهاز كل الفرص للاعراب علانية عن تأييدنا لها » . وبعد يومين صدر تصريح ايدن (وكانت ثورة رشيد عالي الكيلاني قد احبطت) وخلاصته ان بريطانيا تعتبر تدعيم الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية بين الدول العربية امرا طبيعيا وسليما وستعطي تأييدها التام لاي مشروع يحظى بالموافقة العامة في هذا الصدد . ورحب الزعماء العرب بالتصريح رغم انه لم يعكس تحولا ايجابيا جديدا في السياسة البريطانية ويستند الى تصور سلبي لفكرة الوحدة ، فضلا عن انه اهمل الاشارة للقضية الفلسطينية ، والتي كانت بريطانيا تعتبرها عاملا له اهميته في سياستها تجاه المنطقة ، وانها تمثل القضية الرئيسية في طريق اية محاولة لتأمين المصالح البريطانية وكسب ود العرب .

وقد وضعت لجنة وزارية بريطانية تقريرا تاليا بعنوان : (الاتحاد العربي) في ١٩٤٢/١/٩ كان اشمل وادق دراسة للسياسة البريطانية

تجاه المنطقة وحصيلة آراء الدوائر المعنية بشؤون العرب ويعكس اتجاهات السياسة البريطانية خلال الحرب . يسرد التقرير أولا وجهة النظر المؤيدة لاتخاذ بريطانيا المبادرة بانشاء اتحاد عربي من اجل تسوية المشكلة الفلسطينية من جهة ، ولدعم النفوذ السياسي والوجود العسكري البريطاني من جهة اخرى . الا ان التقرير يرجح الجانب السلبي المعارض للاتحاد لان الاتحاد لايمثل هدفا ثابتا او حقيقيا للدول وللشعوب العربية ، ولا ينبغي اعتباره من بين الاهداف السياسية لحركة القومية العربية . ولكن نظرا لمصالح بريطانيا الاستراتيجية وضرورة استمرار قواعدها ، واحتمالات الخطر الذي قد تتخذه الحركة العربية من العداء ضد بريطانيا وفرنسا واليهود يرى التقرير عدم اتخاذ موقف سلبي تجاه الحركة ومحاولة اظهار التعاطف معها مع العمل على توجيهها قدر الامكان لما يحقق مصالح العرب ولا يمس المصالح البريطانية واوصى التقرير بما يلي : عدم اتخاذ الحكومة البريطانية المبادرة لانشاء اتحاد عربي . عدم فرض اي نوع من الاتحاد على العرب . اظهار التعاطف مع آمال العرب في الوحدة حتى يمكن ضمان اتخاذ حركة القومية العربية مسارا غير متطرف، ومع استبعاد كافةالاشكال السياسية للاتحاد (جميع دول المشرق ، دول المشرق عدا السعودية ، سورية الكبرى ، التعاون السياسي بين دول المشرق في اطار معاهدة اخوة)
فانه ينبغي تشجيع كافة اشكال التعاون الثقافي والاقتصادي بين دول المنطقة .

ويمثل هذا التقرير خلفية تصريح ايدن في ايلول ١٩٤٣ الذي اكد فيه تعاطف بلاده مع فكرة القومية العربية ، واعتقاده في الوقت نفسه ان المبادرة يجب ان تأتي من العرب انفسهم وانه حتى الآن لم تتم صياغة مشروع يحظى بالرضاء التام وان الموضوع معقد تتغاير بشأنه وجهات النظر الوطنية .

وانتهت مشاورات النحاس باشا (مع الدول العربية المشرقية وبعضها مستقل والبعض الآخر مرتبط بمعاهدة) في وقت اسرع مما قدرته بريطانيا ، اذ كانت تطلب ارجاء البت فيها الى مابعد الحرب بحجة ان المشاورات لم تكشف عن وجود قدر كاف من نقاط التفاهم حول الصيغة المقبولة للتعاون . وكان صدور بروتوكول الاسكندرية

١٩٤٤/١٠/٧ المؤسس لجامعة الدول العربية مفاجأة لكثيرين في وزارة الخارجية البريطانية وعلق احدهم « بأن البروتوكول قد مضى الى ابعد مما توقعنا ان تتمخض عنه مشاورات النحاس » . وابرم الميثاق في ١٩٤٥/٣/٢٢ ، وكان اهم الاحداث السياسية التي شهدها الوطن العربي في الاربعينات .

ورغم كل ما قيل بأن قيام الجامعة بالصورة التي حددها ميثاقها هي مجرد منظمة للتعاون والتنسيق بين اقطار عربية مستقلة اشبه بمنظمات التعاون الاقليمي ولا سلطة فعلية لها على الدول المشتركة فيها، وهي بذلك تمثل قصورا في التفكير وقضاء على آمال تحقيق الوحدة الكاملة ، رغم كل ذلك تبقى الحقيقة التالية : وهي انها ادخلت في الوعي العربي فكرة ان مشاكل العالم العربي متشابكة ، وانها لايمكن حلها الا بالعمل الجماعي والتعاون الوثيق والوحدة .

٣ ـ قضية فلسطين واثرها في تطور الفكر القومي بعد الحرب العالمية الثانية :

خلال الحرب العالمية الثانية اسدل ستار محكم على فلسطين ، وكانت الظروف المواتية كلها بجانب الصهيونيين ، فتفوقوا من حيث التسلح والتدريب والتنظيم في حين كان بطش الدولة المنتدبة قد فتت قوى ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . وكان على الجامعة العربية منذ تأسيسها ان تولى القضية اكبر اهتمامها ، وقد جاء في القرار الجماعي لبروتوكول الاسكندرية « ان فلسطين ركن مهم من اركان البلاد العربية وان حقوق العرب لايمكن أن تمس من غير اضرار بالسلم والاستقرار بالعالم العربي »،وافرد ملحق خاص لفلسطين فيميثاق الجامعة . ومنذ اعلان الميثاق اصبحت جامعة الدول العربية هي الناطقة باسم فلسطين دوليا وعربيا وتدعم كفاحها سياسيا وعسكريا .

وقد قدر لمصير فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية ان يكون مصدر قلق واهتمام لجميع العرب في سائر ارجاء المنطقة ، وكانت بريطانيا بعد الحرب قد عادت الى سياستها التقليدية في لجان التحقيق والمؤتمرات (لجنة التحقيق الانجلو ـ امريكية ومؤتمر لندن ١٩٤٦) لتسوية القضية

الفلسطينية. ودخلت الولايات المتحدة بثقلها لدعم دعوى اليهود باقامة وطن قومي رغم تزايد المصالح الامريكية في الوطن العربي . وعملت الدول العربية على نحو جماعي لدعم الحق العربي في فلسطين عبر مؤتمرات قمة (مؤتمر انشاص أيار ١٩٤٦) أو عبر مجلس جامعة الدول العربية (مؤتمر بلودان وبيروت وعاليه من ايار ١٩٤٦ - تشرين ثاني ١٩٤٧) وصدرت مقررات علنية وسرية تؤكد على صيانة عروبة فلسطين واظهار خطر الصهيونية على الامة العربية والعمل على استقلال فلسطين ووجوب حمايتها من الهجرة وتسرب الاراضي ، ولم يكن لهذه القرارات مردود عملي في وقف تنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي .

ولما فشلت بريطانيا في فرض حل للقضية اعلنت تخليها عن الانتداب واحالة القضية على الامم المتحدة في نيسان ١٩٤٧ ، وهي خطة لتنفيذ مشروع تقسيم قديم ، وفي ٢٩ تشرين ثاني اصدرت غالبية الدول قرارها بالتقسيم ، ولعبت الولايات المتحدة دورا رئيسيا في تامين اكثرية الثلثين المطلوبة في الجمعية العامة . وبعد اتخاذ قرار التقسيم تفجر العنف داخل فلسطين . ومع أن الاستعداد للصراع كان غير متعادل سياسيا وماليا وعسكريا فان رد الفعل كان عنيفا ضد اعلان قيام دولة الكيان الصهيوني داخل فلسطين وخارجها لان قرار التقسيم يتعارض مع الاماني القومية للامة العربية . وقررت جامعة الدول العربية تقديم الدعم العسكري الى اهل فلسطين دفاعا عن عروبة فلسطين ولمقاومة انشاء الدولة اليهودية بالقوة . وفي ١٥ ايار ١٩٤٨ ومع نهاية الانتداب البريطاني اعلن قيام الكيان الصهيوني وتدخلت الجيوش العربية وكان مصير الحرب معروفا : اذ بالاضافة الى الخلل الواضح في توازن القوى من حيث التنظيم والتعبئة العسكرية لم تكن الحملة العربية منسقة بين الجيوش المختلفة ، كما ان الدول العربية كانت اما حديثة الاستقلال او واقعة تحت سلطة الاستعمار فلم تكن على مستوى المسؤولية القومية . وتم فرض الامر الواقع في ١٩٤٩ باتفاقات هدنة عقدت باشراف الامم المتحدة بين كل دولة عربية على حدة وبين اسرائيل . وغدا اكثر من مليون عربي في عداد اللاجئين .

ولاول مرة منذ حروب الفرنجة تقوم دولة اجنبية معادية ، او بالاصح كيان مصطنع ، وسط الوطن العربي فتحطم وحدته الجغرافية والبشرية الى قسمين متباعدين وتحول دون الاتصال بينهما وتهدر

بالسيطرة عليه سياسيا واقتصاديا ، وتكون الى جانب ذلك حليفا طبيعيا للدول الغربيةالتي لهامصالح قائمةفي الوطن العربي ،والتي اصبحت قادرة ، بمساعدة الكيان الجديد ، ان تهدد بسهولة اية حركة عربية تحررية تنطلق في اي بلد عربي مجاور .

لقد طرأ على فكرة القومية العربية تغير كبير تحت ضغط كارثة فلسطين ، فقد كان لانشاء دولة اسرائيل وهزيمة الجيوش العربية وما تبعها من اذلال وتشريد السكان العرب اثر عميق في التفكير القومي وغدت رمزا لجميع مظاهر الضعف التي يعاني منها الوطن العربي من استعمار وتخلف وتجزئه . وجاء رد الفعل الحقيقي للنكبة شعبيا قبل ان يجيء رسميا ، فازدادت حدة المشاعر العربية من الغضب والمرارة وجرت الاضرابات والمظاهرات في حملة ضغط شعبي على الحكومات لمواجهةالتحدي الصهيوني ودعم نضال الشعب الفلسطيني لاسترداد حقوقه، بعد ان اثبتت هذه الحكومات عجزها امام قوة « اسرائيل » والقوى الاستعمارية الداعمة لها ، وغير قادرة على تخطي العجز . وكان هناك ادراك تام بان استمرار وجود « اسرائيل » يعني استمرار الوجود الامبريالي في كل الارض العربية. وولد هذا الوضع احراجات للانظمة العربية وساد التوتر وعدم الاستقرار. ارجاء كثيرة من الوطن العربي وفي كل مكان بدأ الاضمحلال التدريجي لنفوذ الصفوة الحاكمة التي لم تقم بدور فعال .

وبشكل عفوي تشكلت منظمة سرية شبه عسكرية اطلقت على نفسها كتائب الفداء العربي من مجموعة من الشباب المتحمس من سورية ولبنان وفلسطين والعراق ومصر من الذين شهدوا الهزيمة ووجدوا في الكيان الاسرائيلي تهديدا مستمرا للاهداف القومية وتأثروا بمختلف المبادىء الثورية الاوروبية وتجارب الحركات الثورية العربية وقامت أفكارهم على العداء للصهيونية وللغرب ،وتقديس العنف السياسي. وكانت مهمتهم كجماعة ضاغطة التأثير على الصفوة الحاكمة لرفض اي صلح . ومع أن المنظمة لم تدم طويلا الا انها ساعدت على تسليط الضوء على القضية وساعدت الى حد ما على رفع المعنويات .

وفي اوساط المثقفين العرب اصبحت القضية محور اهتمام النشطين سياسيا من منطلق الرابطة بين القضية الفلسطينية والقضية العربية فقضية فلسطين هي مسألة في صميم القومية العربية وهي أفدح ظلم حل

بالامة العربية في التاريخ . واصبحت في برامج الاحزاب والتيارات والحركات القومية التي بدات تشق طريقها في الاربعينات مع ازدياد المد الذي شهدته الحركة القومية (حزب البعث ، وحركة القوميين العرب)، وهي احزاب وحركات عقائدية تسعى لتحقيق اهداف الامة العربية وخلق الانسان العربي تخاطب الجيل الجديد وتؤمن بالتغير الشامل والجذري في الجبهة الداخلية ، وتناهض الصهيونية والاستعمار في الجبهة الخارجية. وقد توالدت لديها قناعة تامة بأن عملية التحرير الكامل لايمكن أن تتحقق الا من خلال الوحدة فقد ضاعت فلسطين بسبب ضعف الدول العربية وتجزئتها والنفوذ الاجنبي .

ولونت النكبة تلك الفترة بمزيج من الندم والمرارة والشعور بالعجز ودعوة لرفض الواقع مع الاحتفاظ بالوعي الفلسطيني وحضور القضية الفلسطينية . كما انطلقت مجموعة تصورات لتفسير اسباب النكبة ونتائجها والبحث الجدي عن وسائل الخروج من دائرتها ، وهي تصورات زادت الوعي القومي عمقا ووضوحا فهناك التصور التآمري الذي فسر الهزيمة على انها نتيجة تآمر بين الصهيونية والدول الكبرى او انها تآمر بين بعض المسؤولين عن تسليح الجيوش العربية . وهناك التصور التكنولوجي الذي عزا الانتصار الى حيازة الصهيونية للاسلحة الحديثة وعدم توفرها لدى العرب . وكل هذه التصورات افترضت التوحيد العربي؛ فالمجابهة الحقيقية لقوى العدوان الصهيوني تتطلب حشد الطاقات العربية .

وكان من بين من عالج هذا الموضوع من المفكرين قسطنطين زريق في كتابه معنى النكبة ١٩٤٨ الح فيه على ان خطر التوسع الصهيوني أهم ما يواجه العرب اليوم ، وان لاسبيل لهم الى صده الا ببذل كل مايملكون من قوة وهذا يقتضي منهم تحويل كيانهم تحويلا تاما . وهو يرى ان السبب الاساسي لهزيمة العرب وللخطر المحدق بهم انما هو عدم وجود امة عربية بالمعنى الصحيح . ولابد من تغيير أساسي في حياة العرب وتفكيرهم يفضي بهم الى انشاء دولة موحدة متطورة اقتصاديا واجتماعيا بحيث يصبح العرب جزءاً من العالم الذي يعيشون فيه ، بأساليبه التقنية المادية وطرق تفكيره العلمي ، ولا يحقق هذا الامر الا نخبة مثقفة تستطيع ان تنظر الى نفسها والى العرب بالوضوح والتواضع اللذين لاينجمان الا عن فهم حقيقي للتاريخ .

وقد اعرب موسى العلمي في كتابه « عبرة فلسطين » ١٩٤٩ عن آراء مماثلة فسرد الاخطاء التي ارتكبها العرب في معالجتهم للقضية الفلسطينية ، كتقصيرهم في اعداد العدة ، وعدم اتحادهم ، وعدم تفهمهم بوضوح لما ستكون عليه الحرب وعدم الجد في خوضها . لكنه انصرف من جهة اخرى الى الكشف عن مصادر الضعف الكامنة ، بوجه عام ، وراء هذه الاخطاء ، كعدم وجود وحدة دائمة وثابته فيما بينهم والخلل في اجهزة الحكم ، وغياب الوجدان السياسي عند الشعوب العربية ، وفقدان الاتصال بينها وبين حكوماتها . ثم يقول انه لاقدرة للعرب على صد التوسع الصهيوني الا بالوحدة الحقيقية بين بلدان الهلال الخصيب اولا وباصلاح انظمة الحكم اصلاحا يجعل منها انظمة دستورية حقه ، يوجه العقل سياستها ، والعلم ادارتها وتعنى بخير الشعب ويكون فيها الحق في الحرية وفي العمل والامن والخدمات الاجتماعية معترفا بــه . اذ لايمكن ان يكون ثمة أمة بالمعنى الحقيقي الا اذا كان فيها للشعب ما يملكه ويدافع عنه .

وقد وضع قسطنطين زريق وموسى العلمي ثقتهما ، عند تفصيل وسائل تحقيق هذه الاصلاحات ، في النخبة المخلصة العاملة على خلق راي عام متنور وعلى استخدامه لتحقيق الاصلاح سلميا . في حين يرى ادمون رباط انه لم يعد بوسع النخبة القومية البورجوازية ، التي افلتت السلطة من يدها ، ان تزود الامة بزعمائها . ويذهب فايز صايغ الى ان انشاء قومية عربية موحدة لن يتم بوسائل سياسية صرف ، بل لابد من تغيير اجتماعي اساسي ، اذ لا تتحقق الوحدة الا بالقوة الدينامية المتفجرة من مثل هــذا التغيير .

٥ ــ رياح التغيير :

ظلت السلطة السياسية لفترة طويلة في الوطن العربي في ايدي نخبة حاكمة تمثل « الجيل القديم » وهذه النخبة هي التي انصرفت في الفترة بين الحربين الى قضية التحرر الوطني ، ونادت بالفكرة القومية وتبنت الانظمة الغربية في الحكم . الا انه في اواخر تلك الفترة بدات هذه النخبة تفقد دورها القيادي فهي قد عجزت عن مستوى المواجهة ضد الاستعمار اما بدافع الضعف والتخاذل أو لانها اخضعت المصالح العامة للمصالح الخاصة وشغلتها القضايا المحلية في كثير من الاحيان عن القضية القومية ، كما ان

الكثير منها قد اساء استعمال الانظمة الديمقراطية . وفي خضم العمل السياسي انصرفت عن قضايا الاصلاح الاجتماعي وعن اعداد الجيل اللاحق لتحمل مسؤولياته .

ولم يكن غريبا ان يبحث الشعب العربي عن قيادة متنورة قادرة على انجاز توقعاته من بين صفوف « الجيل الجديد » الذي بدأ يتكون منذ اواخر الثلاثينات والاربعينات على نطاق محدود (الاهالي وعصبة العمل القومي والبعث) ، ويزداد نمو هذا الجيل بعد الحرب العالمية الثانية ويوصف هذا الجيل مرة بانه جيل المثقفين ومرة اخرى بانه طبقة وسطى جديدة ، ولكن كلا هذين الوصفين لا يعتبران تعريفا صحيحا . ذلك لان هؤلاء الشباب كانوا يمثلون مختلف المهن والخلفيات الاجتماعية ، جاء معظمهم من الطبقات العادية وآثر بعض الذين تحدروا من طبقة عليا ان ينتموا الى هذا الجيل ، وقلة منهم تعتبر ثرية الا الذين ورثوا عن آبائهم وتتكون غالبيتهم من مفكرين واصحاب مهن حرة معظمهم تلقى العلم في مدارس وجامعات غربية أو محلية قائمة على اسس غربية ، وكذلك من بعض ضباط الجيش والموظفين ، والصبغة العامة التي تجمعهم انتماؤهم الى الجيل الجديد الطامح الى حمل المسؤولية عن الجيل القديم ، ذلك الجيل الذي افرز الحكام الحاليين في الوطن العربي ويقاوم التغيير ، وهدفهم النضال لمصلحة الشعب عموما ولمصلحة الطبقة الدنيا بوجه اخص .

وكانت القضايا التي تشغل اهتمام الجيل الجديد ويتوق الى احداث التغيير فيها كثيرة منها :

أ ـ الاستقلال القومي وحقوق السيادة :

رغم ان الامبريالية قد تقلصت بعد الحرب العالمية الثانية الا أن النفوذ الاوروبي مازال موجودا في أجزاء كثيرة . ولم يقع تبدل في مركز بريطانيا المسيطر في معظم الدول العربية بعد انقضاء سنوات الحرب . وهناك خطر جاثم مهدد باستمرار السيادة العربية يجعل الوطن العربي ميدانا للصراع الدبلوماسي بين الدول العظمى نتيجة الحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية . ولم تعد وسائل التنظيم والعمل القديمة ترضي الجيل الجديد بعد اقتناعه بأن المتحكمين من الساسة المحافظين

عاجزون عن محاربة الاستعمار لانهم في الحقيقة ادوات يستخدمها الاستعمار اما بمشيئتهم لحماية مصالحهم او رغما عنهم ، وانظمة الحكم المتداعية عاجزة عن تقرير سياستها الخارجية ولا تزال تعتمد على القوات الاجنبية والاموال الاجنبية والدعاية الاجنبية لتنفيذ اغراضها ، وتتطلع فرادى الى الدول الغربية ، وخاصة بريطانيا ، مناشدة عونها في نزاعاتها ومنافساتها . ويحرص الاستعمار من جهته أن يدعم الفئات التي تضمن مصالحه ، وان يسيطر على الاتجاهات داخل المحيط العربي ويعدلها ويوجهها . وحتى الانظمة التي اتفقت على معارضة النفوذ الاجنبي حافظت على علاقات وثيقة مع الدول الغربية على اساس المصلحة المتبادلة .

ب ـ قضية الوحدة :

فالقيادات المحافظة قد انصرفت ، رغم اهتمامها المبدئي بالوحدة العربية ، الى القضايا المحلية ، دون ان تقوم باي محاولة جادة منظمة في سبيل التربية السياسية القومية . وبعد ان حصل كثير من الاقطار العربية على الاستقلال السياسي بعد الحرب الثانية تكرست الاوضاع القطرية في المنطقة ، ووجدت الفئة الحاكمة نفسها في وضع ترسخت فيه مصالحها الحيوية ضمن الحدود القطرية واصبحت هي المستفيد الاول من حالة التجزئة . بل وانكفات تجارب الافكار الوحدوية التي انبعثت عن التحرك السياسي للجيل الجديد ، مستعينة تارة بحلفائها الغربيين وطورا بالدعوة الى مشاريع بديلة للوحدة العربية للاحتيال على الحركة الوحدوية .

ج ـ انظمة الحكم السياسية :

فقد ساء الجيل الجديد فساد الحكومات وعجزها عن العمل وشلل البرلمانات الخاضعة لاهواء القصور والسفارات وفشل الانظمة الديمقراطية في الارتفاع الى مستوى التوقعات واحتكار السلطة من جانب الطبقة الحاكمة التقليدية .

د ـ القضايا الاجتماعية والاقتصادية :

فقد كان الجيل الجديد متشبعا بروح الاصلاح الاجتماعي . صدمته

احوال الفلاحين السيئة وازدياد الشقة بين طبقة الجماهير والاثرياء ووقوف ذوي المصالح الى جانب السلطة ، وتعاطف مع الشعب في تململه من الاحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة ويأسه من تحسن الحال .

وجاءت اهداف الجيل الجديد مزدوجة فهي ترمي الى انهاء الارتباطات الاجنبية المهينة والنفوذ الغريب وتحرير الوطن العربي وعزله عن المصادمات بين الدول العظمى والقيام باصلاحات داخلية تستخلصها من ايدي المتنفذين من الزعامة المحافظة ، لتصاغ بعد ذلك الوحدة العربية المنشودة .

وكان الجيل الجديد يرقب وينتظر ، ويشترك في الانتفاضات التي جرت بعد الحرب ويعقد الاجتماعات ، وينتمي الى مختلف الاتجاهات العقائدية ويشارك في احزاب قومية تواجه خطر ازدياد النفوذ الاجنبي وتتبنى افكار العدالة الاجتماعية (توزيع الثروة والضمان الاجتماعي والحد من ملكية الارض) وتطالب بالحرية السياسية وتضع في اهدافها مناهضة الاستعمار وتحقيق الوحدة العربية . مع ذلك لم يحدث تبدل في كيان السلطة والزعامة ، ولم يصل أصحاب هذه الاتجاهات الى السلطة لتنفيذ خطتهم كما لم ينفذوا الى البرلمانات وعجزوا عن المشاركة في الميدان السياسي الذي كان خاضعا لسيطرة السياسيين القدامى .

وفشل الجيل الجديد في التأثير على الجيل القديم وفي مباشرة الاصلاح بالطرق السلمية لان التغيير يهدد موقع النخبة الحاكمة بالخطر ، والاساليب التقليدية هي خير حارس لمصالحها ، فقاومت التغير بالقوة ولجأت الى الاضطهاد مرارا وهي ترى الجيل الجديد يتحدى مواقعها ، بدعوى المحافظة على الامن العام وقمع العنف . وعزز هذا من الانطباع السائد بان الجيل القديم لم يكن مهيأ للتكيف مع الظروف الجديدة .

وجاءت نكبة فلسطين لتزيد الحاجة الى التغير لتحقيق اهداف ثلاثة ، الاستقلال والاصلاح الاجتماعي والوحدة : فالسلطة الاجنبية المتمثلة في بريطانيا هي التي اصدرت الوعد وهي التي رفضت حق تقرير المصير لعرب فلسطين ودعمت الصهيونية ، ثم غسلت يديها اخيرا ، وبرهنت العهود الرجعية عن ضعفها وعجزها وفسادها وفشلت في قهر العدو . كما كشفت الهزيمة المنافسات بين زعماء العرب ووجوه الضعف في الشعب

العربي الذي عجزت جيوشه عن خوض المعركة بصورة متناسقة .

في الفترة التي تلت النكبة حيث المنطقة العربية في حالةغليان والشعب يشعر بخيبة أمل ويبحث بلا أمل عن بوادر تغيير في الوطن العربي ،استمرت الهياكل القديمة من الحكومات بمنافساتها التقليدية وفسادها وظلمها ، واستمر الضغط الاجنبي من جهات مختلفة .

كيف يمكن للجيل الجديد ان يحدث التغيير في مجتمع لم يكتمل بعد وعيه السياسي ، ولا يزال يعاني الى جانب الصراع ضد القوى الاستعمارية والتجزئة ، من كل مشاكل المجتمعات المتخلفة ؟ لم يكن باستطاعة هذا الجيل ان يعتمد على الطبقة الوسطى لان نموها كان بطيئا بعد الحرب العالمية الثانية وكذلك لم يكن للفلاحين والعمال ثقل واضح ، فكان لابد له من قوة تستطيع أن تحقق التغيير المنشود .

ولم تكن الجيوش قد لعبت دورا في شؤون السياسة قبل الحرب العالمية الثانية باستثناء العراق . لانه في البلدان العربية التي سمح فيها بانشاء جيش وطني بقي الجيش محكوما بمعاهدات وشروط تضمنت عدم خروجه عن ارادة الادارة الاستعمارية . وكانت المشاعر التي تعمل في صفوف الشعب تعتمل في صفوف القوة المسلحة ، والضباط الصغار بوجه خاص، الا ان ضعف الحركة الشعبية وقوة الجيش النسبية جعلت القوى العسكرية اقدر على المبادرة . وينتسب الضباط الصغار الذين عملوا في حقل السياسة الى ما سمي « بالجيل الجديد » فقاسموهم أفكارهم وآمالهم وراقبوا طويلا وبعين يقظة التطورات السياسية مبتعدين عن الضباط الكبار المنتمين الى الطبقة العليا والمرتبطين بمصالحها والذين حاولوا ابقاء الجيش مواليا للنظام .

ويقول احد مراقبي الحياة السياسية العربية « ان طبقة الضباط العرب النبهاء غدت مستودع القوة السياسية الواعية في وقت كانت فيه الطبقة الحاكمة التقليدية قد افلست ، ولم تكن القوى الاخرى النامية قد تبلورت بعد ، فاخذت الجماهير ترى بالفعل في هذه طبقة « المخلص المنتظر » . واصبح الجيش هو القادر على مساندة الحركة الشعبية في صراعها مع الرجعية وهو الوحيد الذي يستطيع الصمود امام مؤامرات

الاستعمار والنفوذ الاجنبي ، ومواجهة الصهيونية ، والقادربمعونةالمدنيين ذوي السمعة الوطنية على تحقيق التغييرات الاجتماعية والاقتصادية .

مصادر البحث :

ارسكين تشايلدرز : الحقيقة عن العالم العربي ، لندن ١٩٦٠، بيروت (مترجم) .

انيس صايغ : كلمة المستقبل العربي ، افتتاحية المستقبل العربي (مركز دراسات الوحدة العربية بيروت) نوفمبر ١٩٧٨ .

البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، لندن ١٩٦٢ ، مترجم بيروت ١٩٦٨ .

جورج انطونيوس : يقظة العرب ، لندن ١٩٣٩ ، مترجم بيروت طبعة رابعة ١٩٧٤ .

حازم نسيبه : القومية العربية ، فكرتها وتطورها نشاتها ، نيويورك ١٩٥٦ ، مترجم بيروت ١٩٥٩ .

الثورة العربية الكبرى ومستقبل العمل القومي ، دراسات في الثورة العربية الكبرى) عمان ١٩٦٧ .

خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ - ١٩٢٠، القاهرة ١٩٧١ .

ساطع الحصري : الاقليمية جذورها وبذورها بيروت ١٩٦٤ طبعة ثانية .

عبد العزيز الاهواني : ازمة الوحدة العربية ، بيروت ١٩٧٢ .

مجيد خدوري : الاتجاهات السياسية في العالم العربي،جون هوبكنز، ١٩٧٠، مترجم بيروت ١٩٧٢ .

ناجي علوش : الثورة والجماهير بيروت ١٩٧٣ طبعة ثالثة .

وليد قزيها : فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين ، المستقبل العربي نوفمبر ١٩٧٨ .

القومية العربية في مرحلة مابين الحربين العالميتين،المستقبل العربي يناير ١٩٧٩ .

Agwani; Mohammed Shafi., The united States and the Arab world 1945-1952. Muslim University, Aligara India.

Crym, Bartley, Behind the silken Curtain, New York, 1947.

Gomaa, Ahmed M., The Foundation of the Leagure of Arab studies, London 1945.

khadduri, M. Independent Iraq : A study in Iraqi Politics, 1932 - 1953. Oxford, 1960.

Marlow, J., Arab Nationalism and British Imperialism, London, 1961.

العرب في شرق إفريقية
جزر القمر

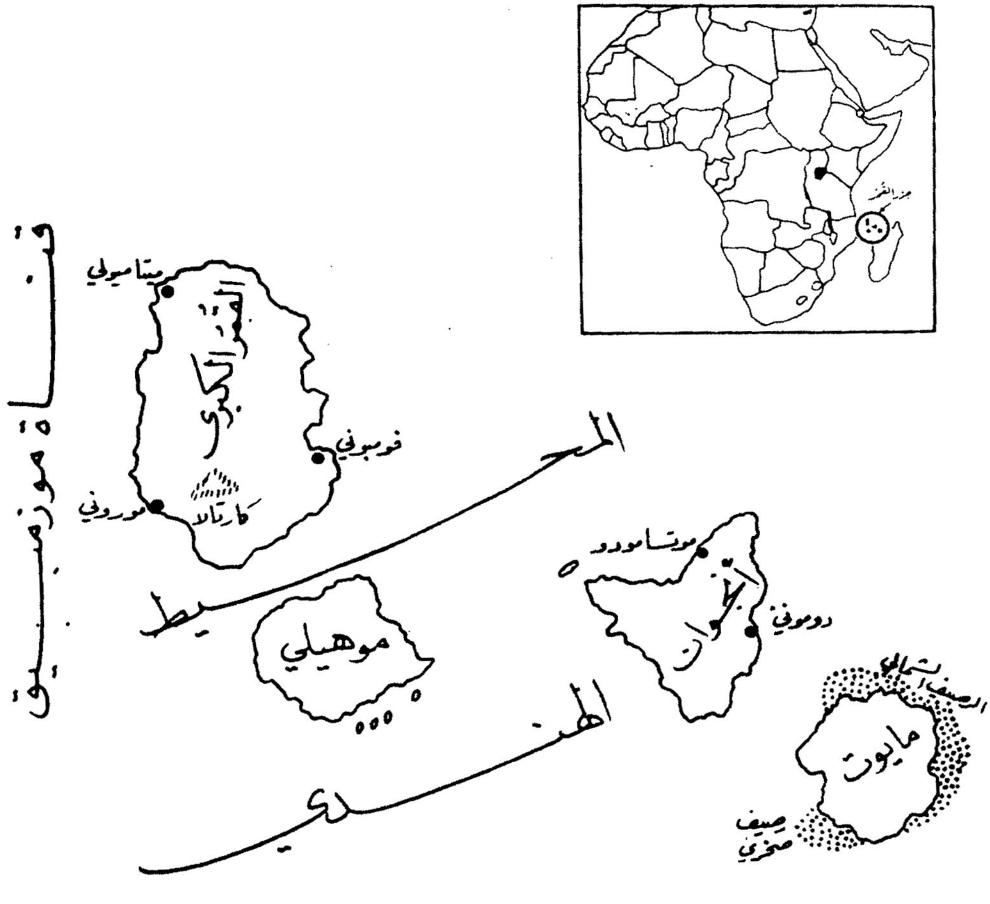
عبد الرحمن بدر الدين

الموجه الاول للتاريخ في وزارة التربية

مقدمة :

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم يحملون رسالة التوحيد ، محررين الاقطار المجاورة لهم من نير الاجنبي واثم الشرك ، وقد وصل هؤلاء الكماة في فترة وجيزة الى حدود الصين شرقا وشواطىء الاطلسي غربا ، واصبحت حضارتهم منارة للعالم يقتبس منها ويهتدي بهديها ٠

الا أن التواجد العربي وانتشار الدين الاسلامي تعدى تلك الحدود ولم يتوقف مع توقف عملية الفتح ، بل ان انتشار الدين والتسرب العربي استمرا بعد ذلك لعدة قرون متبعين الطرق التجارية التي كانت قائمة طيلة العصور الوسطى وشطرا من العصور الحديثة٠ ولقد انتشر الاسلام في جنوب شرقي اسيا ، حمله تجار يمنيون وحضارمة ، كما انتشر في وسط وغربي وشرقي افريقيا ، واسهم في حمله العرب المغاربة في غرب أفريقيا والعمانيون والحضارمة واليمنيون في شرقيها فتاسست امارات ودول تدين بالاسلام وتحكم من قبل اسر عربية عريقة (الفونج ، زنجبار ٠٠) وكان الساحل الشرقي لافريقيا موطن استيطان للعرب القادمين من شبه الجزيرة ، فاثروا في تكوين سكانه العرقي ، وصبغه حضارته بحضارة عربية اسلامية ، ونشرو الدين الاسلامي بين سكانه ٠ وبذلك أصبح معظم سكان الساحل يتكلمون اللغة السواحلية التي هي مزيج من اللغة العربية ولغة البانتو الافريقية ، كما تطبعوا بالعادات والتقاليد الاسلامية وظهر منهم المتحمسون لهذا الدين فعملوا على نشره في الجزر القريبة منهم ، ومن اهمها جزر القمر مدار بحثنا في هذا المقال ٠



يتداول سكان هذه الجزر اسطورة قديمة توارثوها عن اجدادهم تقول : ان نفرا من الجن تآمر على بلقيس ملكة سبأ وسرق عرشها وخبأه بين حمم بركان كارتالا Carthala الموجود في جزيرة القمر الكبرى ، ولما يأست الملكة من العثور عليه ، لجأت الى صديقها الملك سليمان طالبة منه ان يأمر اعوانه بالتفتيش عن العرش واعادته الى عاصمة ملكها ثم تستطرد الاسطورة فتقول ان سليمان جاء بنفسه الى تلك الجزر مدللا بذلك على مدى اهتمامه بالامر · وامر باعادة العرش الى صاحبته ، بيد

انه دهش مما راه من مناظر بديعة اخاذة : اشجار باسقة ، وطيور ملونة مغردة ، ونباتات تنبعث منها روائح ذكية ، بالاضافة الى زرقة السماء الصافية والتي تحاكي زرقة البحر المحيط بتلك الجزر والتي ينعكس على صفحتها ليلا ظلال من اللهب المتراقص والمنبعث من بركان كارتالا ٠ كل ذلك جعل سليمان يقرر الاقامة بعض الوقت في احضان هذا الفردوس الذي لم تمتد اليه يد الانسان بعد ، متناسيا مالديه من أعمال ومهام ، مؤثرا الاستمتاع والاستراحة في احضان الطبيعة البكر التي لم ير مثيلا لجمالها في مختلف اصقاع الارض ٠

تلك هي الاسطورة التي يتداولها سكان جزر القمر ، ولقد عبر واضعوها وبشكل موجز عما تتصف به هذه الجزر من جمال ساحر ،يندر وجوده في جزر المحيط الهندي وسواحل افريقيا الشرقية ٠ وفي الواقع ان الزائر لها يقف مشدوها امام روعة الطبيعة بحلتها الخضراء الدائمة والروائح العطرة المنبعثة من ارجائها ، بالاضافة الى تأرجح بصره بين القمم العالية ، وبخاصة قمة جبل كارتالا، Carthala حيث يجثم البركان الذي يحمل هذا الاسم على ارتفاع ٢٣٦١ مترا في جزيرة القمر الكبرى والذي ينبعث من فوهته الدخان بشكل دائم وبين زرقة مياه المحيط الصافية التي تتكسر أمواجها على الارصفة المحيطة بهذه الجزر والتي تجعل اقتراب السفن الكبيرة منها فيه الكثير من المغامرة وبحكم المستحيل ٠

السمات الجغرافية لجزر القمر :

يتألف ارخبيل جزر القمر من أربعة جزر متفاوتة في المساحة وعدد السكان ، وهي :

- جزيرة القمر الكبرى ومساحتها ١١٤٨ كم٢ وعدد سكانها نحو ١١٨ر٠٠٠ نسمة ٠

- جزيرة موهيلي Moheli مساحتها ٢٩٠ كم٢ وعدد سكانها نحو ١٠ر٠٠٠ نسمة ٠

- جزيرة انجوان Anjouan ومساحتها ٤٢٤ كم٢ وعدد سكانها نحو ٨٣ر٠٠٠ نسمة ٠

- جزيرة مايوت Mayothe ومساحتها ٣٧٤ كم٢ وعدد سكانها نحو ٣٢ر٥٠٠ نسمة ٠

وهذه الجزر بمجموعها تقع الى الشمال من قناة موزانبيق بيسن حطي عرض ١٢ ـ ١٤ درجة جنوب خط الاستواء في حين يمر خط طول ٤٤ من وسط جزيرة انجوان ثانية جزر الارخبيل من حيث المساحة وعدد السكان ۰ تبلغ مساحة هذه الجزر نحو ٢٢٣٦ كم٢ بينما يصل عدد سكانها الى ما يقرب من ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة فيكون متوسط الكثافة ١٠٤ شخصا في الكيلو متر المربع الواحد (١) ۰

ان اقرب جزر القمر الى الساحل الافريقي الشرقي هي جزيرة القمر الكبرى grande comor اذ تبعد عنه بحوالي ٣٠٠ كم ، بينما تفصل مياه المحيط جزيرة ما يوت ، وتقع في أقصى جزر القمر نحو الشرق ، عن ساحل جزيرة مدغسقر بمسافة مماثلة ، وتعتبر هذه الجزيرة اقدم جزر الارخبيل تكونا واكثرها تأثرا بعوامل الطبيعة حتى اصبحت جبالها اشبه بهضاب قليلة الارتفاع وتربتها اكثر عمقا وخصوبة من ترب الجزر الثلاثة الاخرى ۰ بينما نجد ان جزيرة القمر الكبرى احدث تشكلا اذ تصل قمم جبالها الى ٢٤٠٠ م وتربتها اقل عمقا وخصوبة من ترب بقية الجزر ۰ وجزر القمر عامة مغطاة بصخور بركانية سوداء تحيل بعض مناطقها الى أراض جرداء قاحلة غير صالحة للزراعة بسبب انتشار الكتل الصخرية الصلدة الكتيمة على سطحها ، كما يتصف مناخ الجزر بالرطوبة الشديدة والحرارة المرتفعة التي تتراوح بين ١٨° ـ ٣٣° ويتعاقب عليها فصلان رئيسيان هما فصل الجفاف ويمتد من شهر نيسان وحتى شهر ايلول وتهب عليها خلاله الرياح التجارية Alizé بينما تسيطر في الفصل المطير والممتد من تشرين الاول وحتى شهر آذار الرياح الموسمية ، وتصل فيه درجتي الحرارة والرطوبة الى حدهما الاعظمي مما يجعل الجو ثقيلاخانقا من العسير تحمله ، وتجتاح الجزر في هذا الفصل زوابع واعاصير تسبب في بعض الاحيان الكثير من المآسي والدمار وتزهق أرواح العديد من السكان ۰ ويبلغ المعدل السنوي للامطار نحو ٣ م الا أن هذا الرقم متفاوت بين جزيرة واخرى حسب موقعها الجغرافي وتعرضها للرياح القادمة اليها۰

(1) La grande Encyclopédie - Larousse, Vol. 5.

شيء من التاريخ :

يكتنف الغموض التاريخ القديم لهذه الجزر من كل جوانبه ، ولم يتمكن الباحثون والمنقبون عن الاثار والوثائق من العثور على ما يضيءلهم الطريق لمعرفته . ولا يعني هذا ان تلك الجزر لم تكن مأهولة في سالف العصر وان سكانها لم يخلفوا وراءهم بعض منشأتهم وادواتهم ، بل انه من المعقول جدا ان اندفاعات البراكين وما تحمله من حمم مدمرة قضتعلى تلك الادوات والمنشآت فطمست بذلك معالم التاريخ القديم لهذه الجزر . اما تاريخها في العصور الوسطى فان المصادر اليونانية والرومانية لا تأت على ذكره ، بينما نجد الجغرافي العربي ياقوت الحموي المتوفى سنة ١٢٢٨ يذكر في معجمه تحت اسم القمر ما يلي :

« القمر جزيرة في وسط بحر الزنج ، ليس في ذلك البحر اكبر منها ، فيها عدة مدن وملوك ، كل واحد يخالف الاخر ، ويوجد في سواحلها العنبر وورق القماري وهو طيب يسمونه ورق التانبل ويجلب منها الشمع أيضا (١) » .

من الواضح ان هذا الوصف ينطبق على جزيرة مدغسقر الواقعة الى الشرق من جزر القمر الحالية ، فهي اكبر جزر بحر الزنج كما يصفها ياقوت ، ومن المحتمل ان هذه التسمية كانت تطلق على جميع الجزر الواقعة الى الشرق من قناة موزانبيق ولكنها ما لبثت ان اقتصرت مع الزمن على الجزر الاربعة المعروفة حاليا بهذا الاسم .

وتذكر بعض المصادر التاريخية ان عبد الملك بن مروان ارسل بعثة الى الساحل الشرقي لافريقيا ، وصل أفرادها الى ممباسة وعاشوا فيها الى جانب سكانها الاصليين ، وما لبث ان لحق بهم أعداد كبيرة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، أخذوا يعملون للسيطرة على الساحل الشرقي فأسسو مدينة كلوة عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م ، وشمل نفوذهم جزر زنجبار وممباسة وبمبا (٢) . ومن المؤكد أن قسما منهم تسرب الى الجزر

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ط . صادر ، بيروت ١٩٧٥ ، الجزء ١٦ ، ص ٣٩٧ .

(٢) عبد الكريم الغرايبة ، دراسات في تاريخ افريقيا العربية ، ١٩١٨ ـ ١٩٥٨ .

القريبة من الساحل وسيطروا عليها واسموها باسم جزر القمر · ويعتقد بعض الباحثين ان هذه التسمية جاءت للتدليل على جمال تلك الجزر ، اذ ان العرب يقولون عن الشيء الجميل انه كالقمر ، بينما يظن اخرون ان التسمية تدلل على البعد وعدم امكانية الوصول اليه فيقولون بعيد بعد القمر ، وراي ثالث يؤيده سكان هذه الجزر وهو ان التسمية جاءت نسبة الى قُمْري وجمعها قُمُر ، وكلمة قمري تعني نوع من الحمام الذي يكثر في هذه الجزر مما جعل المارين بجوارها يقولون انها جزر القمر ، أي ذلك النوع من الحمام الذي يكثر فيها ، وما ان بدأ البرتغاليون عصر الاكتشافات الجغرافية حتى اصطدموا بالنفوذ العربي في الساحل الشرقي لافريقيا ، فعمدوا الى انشاء قواعد استعمارية لاساطيلهم في المحيط الهندي والخليج العربي لتأمين خطوط مواصلاتهم الى الهند ، كما اخذت السفن الاوربية من انكليزية وهولندية وفرنسية تجوب المحيط الهندي في طريقها الى بلاد التوابل باحثة عن مراكز لاساطيلها وقواعد لقواتها لتؤمن خطوط مواصلاتها الى مستعمراتها في الشرق الاقصى والهند · وكانت هذه السفن تحازي في الغالب جزر القمر وتشتري منها ما تحتاج اليه من مواد تموينية · وقد جاء في تقرير كتبه ضابط هولندي يدعى Van Broecke عام ١٦١٤ ، وصفا لجزيرة انجوان التي حل بها بتكليف من قائده ولغرض تمويني ما يلي : (١) ·

« بعد ان اجتزنا راس الرجاء الصالح في ٣ مايس ١٦١٤ ، ابحرنا ما بين مدغشقر وشاطيء سفاله Sofala حتى جزر القمر مارين امام موزانبيق · وفي ٣ حزيران القينا المرساة أمام جزيرة Answannij (انجوان) وارسلني قائدنا الجنرال Gerard Reynst في الغداة الى الجزيرة حاملا هدية للملك Mogné - Fané وطالبا منه السماح بشراء بعض المواد الغذائية · لقد استقبلت منذنزولي من قبل الملك نفسه الذي كان عربي المولد وقادني الى قصره باحتفال تخلله الطبل والزمر واعطاني ١٣ بقرة و ١٠ خراف و ٢٠ دجاجة وفاكهة ممتازة · ثم عقدت اتفاقا معه حول تحديد اسعار البقر الذي نرغب بشرائه وعدت لاعلم الجنرال بنبأ اتفاقنا ، فأرسلني

(1) Robert Laffont; Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours, p. 342.

الى الجزيرة ثانية فقصدت مدينة Demonjo (دوموني حاليا Domoni) حيث تعيش ملكة جزر القمر Mollanna Allachorre وزوجها عيسى Haissa وقد استقبلتني استقبالا حسنا وانزلتني في بيت أحد سادة المدينة ، وما ان علم السكان بهدفي من الزيارة حتى اخذوا يعرضون علي مختلف منتجاتهم كالبقر والخراف والماعز والدجاج والارز الابيض والدخن والفول والفواكه ..... وقد قايضت الملكة باعطائها ورقا للكتابة مقابل البقر الذي حصلت عليه .... وفي جزيرة انجوان اربعة مدن كبيرة محصنة ومحاطة بأسوار و ٣٤ قرية ·والسكان اصحاب امزجة فرحة مستبشرة وهم جميعهم مسلمون ويوجد في الجزيرة العديد من المساجد وزعماؤها من اصل عربي .... ويجلب اليها العبيد من ارض الكاهن يوحنا Prêtre - jean والحبشة ومدغسقر وهم خدم ممتازون لا يكلف الحصول عليهم غاليا وانجوان جزيرة كثيرة الخصب فيها الكثير من المياه التي تنحدر من الجبال ويزرع فيها كل انواع الفواكه وجوز الهند كما تكثر فيها الطيور كالطواويس والحجل والببغاوات . . . . ويبحر سكان الجزيرة في موسم الرياح الموسمية الى جزيرة مدغسقر بسفنهم الخالية من المسامير الحديدية ، وانما تشد دفوفها الى بعضها البعض بواسطة خيوط مصنوعةمن اليافجوزالهند ويشترون من تلك الجزيرة الارز والدخن والعنبر والعبيد حيث ينقلون هذه البضائع الى البلاد العربية عبر البحر الاحمر ليبادلوا بها بالاقمشة القطنية والافيون ·

ويختم Van Broecke تقريره بقوله .... ان هذه الجزيرة تضم نحو عشرة ملوك صغار يستقر العداء فيما بينهم وهم في حروب دائمة · تلك هي مقتطفات من تقرير ذلك الضابط الهولندي ، وهي تشير صراحة الى وجود العنصر العربي في تلك الجزر كما تؤكد ان الديانة السائدة فيها هي الديانة الاسلامية ، وانها كانت تحتوي على ثروات حيوانية ونباتية كثيرة ورخيصة الثمن وان ربابنة السفن كانوا يؤمونها للتزود بالمؤن وما يحتاجون اليه في سفرهم الطويل ·

ان الدراسات الايتنولوجية واللسانيات Languistique والروايات المتناقلة شفاها كلها تشير الى وجود قرابة عرقية بين سكان هذه الجزر وسكان الساحل الشرقي الافريقي ، اذ ان سكان هذا الساحل يتكلمون اللغة السواحلية بينما يتكلم القمريون لهجة من لهجاتها بالاضافة الى

الكثير من الكلمات العربية المليئة بها · ويذهب الاب الفرنسي Sacleux الى القول : ان السكان الاول للجزر كانوا من اصل فارسي ومن مدينة شيراز بالذات اعتمادا على بعض المعلومات التاريخية التي تؤكد مجيء قادمين جدد اليها حوالي عام ١٥١٠ من اصل شيرازي ، وان اسلافهم كانوا قد غادروا بلاد الفرس بسبب اضطهادات مذهبية في عهد الاسرة الصفوية ، اذ انهم لم يقبلوا الاخذ بالمذهب الشيعي بديلا عن مذهبهم السني (المدرسة الشافعية) مما جعل السلطات الفارسية انذاك تضيق عليهم الخناق وتطاردهم ، فلجؤوا الى حضرموت ثم هاجروا الى الساحل الشرقي لافريقيا بعد ان كانوا قد اختلطوا بعرب الحجاز واليمن· واقاموا على طول الساحل وبخاصة في مدينتي كلوة kiloa وباتا Patta وهاجر فيما بعد بعض احفادهم الى جزر القمر تحت امرة احد زعمائهم المدعو محمد الثوماني والذي اشتهر باسم محمد عيسى واتخذ من جزيرة القمر الكبرى موطنا له · بينما اتجه مساعده الاول المدعو حسان نحو جزيرة انجوان وجعلها مقرا له والثاني ويدعى عثمان نحو جزيرة مايوت وجعلها مركزا لنشاطه · لقد عمل هؤلاء الثلاثة مع ابنائهم واتباعهم على نشر الديانة الاسلامية ، فاعتنق القمريون الاسلام واتخذوا المذهب السني مذهبا لهم ، وذلك بتأثير هؤلاء الدعاة الذين اصبح احفادهم فيما بعد يشكلون طبقة ارستقراطية تزعمت الجزر وسيطرت عليها حتى مجيء الغزو الاوربي واخضاعها لحكمه ·

لقد تعرضت الجزر قبل احتلالها رسميا من قبل فرنسا الى الكثير الغزوات الاجنبية التي كانت تحمل معها الموت والدمار ، فلقد غزاها البرتغاليون ، كما غزاها القراصنة الذين طردوا من منطقة جزر الانتيل فنقلوا نشاطهم الى مياه قناة موزانبيق · وفي عام ١٧٨٠ بدأ قراصنة مدغشقر يشنون غارات متواصلة على الجزر بغية السلب والنهب فكانت غنائمهم تتألف في الغالب من العبيد ، والنساء ، والبقر الهندي zebus وقد استمروا في تعدياتهم نحو اربعين عاما ، ولما كانت هذه الجزر مفككة انذاك لا تخضع الىحكم موحد ، لذا كان على سلطان كل جزيرة ان يدافع عن جزيرته بمعزل عن السلاطين الاخرين ، وهذا ما اطمع بهم القراصنة وبخاصة قراصنة مدغسقر الذين احتلوا جزيرة مايوت وجعلوها مركزا لنشاطهم يشنون منها غارات مفاجئة على الجزر الاخرى باعثين الذعر

والرعب فيها حتى احتلال الفرنسيين لهذه الجزيرة عام ١٨٤١

لقد جاء احتلال جزر القمر اثر تجريد فرنسا من معظم مستعمراتها مما جعل ضباط الاسطول الفرنسي العامل في المحيط الهندي يفتشون عن مناطق جديدة تعوضهم عن خسارة بلادهم في هذا المحيط وبخاصة بعد سلبهم جزر موريس اثر معاهدة فيينا ١٨١٥ ، ولقد وجدوا الفرصة سانحة للتدخل في النزاع الذي كان مستعرا بين قراصنة مدغشقر من جهة وسلطان جزيرة انجوان الموالي للانكليز من جهة ثانية ، وقد وافقت الحكومة الفرنسية على احتلال جزيرة مايوت بحجة مطاردة القراصنة ومكافحة تجارة الرقيق التي وضع مؤتمر فيينا حدا لها · وفي عام ١٨٤٢ بسطوا نفوذهم على جزيرة موهييلي واقصوا ملكتها فاطمة دجومبيه Fatima Djombé عن عرشها ، وعينوا مكانها سيدة من اصل كريولي تدعى Madame Droit الا انهم ابعدوها عن الحكم سنة ١٨٥١ · ثم تابعت فرنسا احتلال الجزيرتين الاخريين ، واعلنت سنة ١٨٨٦ حمايتها على جزر القمر بكاملها (١) ، وما لبثت ان الغت الحماية سنة ١٩١٢ واعتبرت الجزر مستعمرات فرنسية ، ثم الحقتها في مطلع الحرب العالمية الاولى بحكومة مدغسقر الاتحادية · وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية اعتبرت فرنسا هذه الجزر من ممتلكاتها فيما وراء البحار وسمحت لها بتشكيل مجلس للشيوخ واخر للنواب · وفي سنة ١٩٦٢ منحت الجزر الاسقلال الداخلي واصبح النائب القمري في البرلمان الفرنسي سابقا سعيد محمد الشيخ رئيسا لحكومة الجزر فاتخذ من مدينة موروني Moroni في جزيرة القمر الكبرى عاصمة للبلاد · وبدأ القمريون بتشكيل أحزاب سياسية برز منها حزبان هما : حزب التجمع الوطني للشعب القمري ، وحزب الاتحاد الديقراطي للقمريين ، أخذا يتنافسان للسيطرة على مقاليد الحكم ، وبعد وفاة رئيس الحكومة سعيد محمد الشيخ خلفه الامير سعيد ابراهيم في فترة حرجة من تاريخ البلاد ، ازداد فيها الصراع السياسي وساءت الاوضاع الاقتصادية ، ثم انتخب في ٢٤ كانون الاول ١٩٧٢ عضو مجلس الشيوخ احمد عبد الله رئيسا لحكومة الجزر وتم له ذلك اثر زيارة قام بها الى فرنسا واجتماعه مع الرئيس جورج بومبيدو واتفاقهما على

(1) Bernard Gerard Delroisse, Les Comores.

اجراء استفتاء لسكان الجزر لمعرفة رغبتهم في الاستقلال او البقاء تابعين للجمهورية الفرنسية ، وتم ذلك في ٢٢ كانون الاول ١٩٧٤ فجاءت النتيجة مؤيدة للاستقلال واعلن الرئيس أحمد عبد الله استقلال الجزر الاربع في ٧ تموز سنة ١٩٧٥ وانتخبه السكان رئيسا للدولة .

كا على الرئيس الجديد ان يبدا بانشاء الاطر الضرورية للدولة ، وان يواجه المشاكل العاجلة التي نشأت عن انسحاب الفرنسيين وتسليمهم مقدرات الحكم في الجزر للقمريين عدا جزيرة مايوت . الا انه اطيح به في ٥ اب ١٩٧٦ اثر انقلاب عسكري رفع الى سدة الرئاسة السيد علي صويلح رئيس الاتحاد الديموقراطي للقمريين ، الذي لاقى معارضة قوية من السلطة الفرنسية في جزيرة مايوت والتي كانت تحرض سكان الجزيرة وتشجع اقلية من الكريول على الانفصال عن دولة القمر ، حرصا على مصالح بعض الراسماليين الفرنسيين الذين يملكون مزارع واسعة للنباتات العطرية في هذه الجزيرة . اما الرئيس السابق فقد لجأ مع بعض اعوانه الى فرنسا حيث بدا يتدبر الامر للعودة الى بلاده منتصرا وتم له ذلك اثر انقلاب قام به بعض المرتزقة وبزعامة احد الفرنسيين المقيمين في جزيرة مايوت ١٩٧٨ قتل فيه الرئيس صويلح وبعض اتباعه . وفي الواقع ان الصراع بين الحزبين لا يقوم على اسس ومبادىء سياسية بل يكمن وراء الشعارات مصالح شخصية بحتة وارتباطات مع بيوتات مالية اجنبية . فلقد كان يمثل جزر القمر في اوربا سفير جوال يحمل الجنسية الفرنسية، متهم في نزاهته وولائه لهذه الجزر ولكنه مرتبط بها بما يملكه فيها من أراض ومزارع يستغلها لحسابه الشخصي .

الحياة الاجتماعية في جزر القمر

لا يشكل سكان ارخبيل جزر القمر وحدة عرقية متجانسة ، بل هم خليط من اجناس مختلفة ويتضح ذلك من سحنهم ولون بشرتهم ، ومن الممكن ان نميز خمسة اجناس رئيسية وهي :

١ ـ **العرب** : وقد جاؤوا من جنوب شبه الجزيرة العربية ومنطقة

الخليج وضفاف البحر الاحمر ، وهم يشكلون من الناحية العرقية اهم الاجناس المتواجدة في الجزر ، كما انهم يعتبرون الطبقة الارستقراطية والحاكمة ، ويتمتعون باحترام بقية المواطنين اذ نشر اسلافهم الاسلام بين السكان القدماء واعطوهم الحروف العربية لاستخدامها في كتابة لغتهم الوطنية ٠

٢ ـ Oimatsaha ويرجع هؤلاء في اصولهم الاولى الى جزر الهند الشرقية وهم يتمركزون في المرتفعات الجبلية لجزيرة انجوان ويتصفون بالبشرة السمراء والشعر الاملس او المجعد حسب درجة التهجين والانف المقوّس والجبهة المتراجعة ٠

٣ ـ Les Makoas وهم من اصل افريقي انتقل اجدادهم من الساحل الشرقي لافريقيا الى الجزر كرقيق يعملون في البيوت والمزارع ثم تكاثروا فاصبحوا يمثلون فئة لا بأس بها من السكان من حيث العدد ٠

٤ ـ Les Cafres وهم احفاد السكان القدامى لهذه الجزر ، يرجعون بأصولهم الى البانتو Pantous الافارقة ويعتبرون اقلية بالنسبة لبقية الاجناس ٠

٥ ـ المدغسقريون ويقيمون بشكل خاص في جزيرة مايوت ، قدموا اليها زمن الهجرات ونشاط القراصنة ، ومعظمهم مهجنون يطلق عليهم اسم الكريول Criole ان جميع سكان هذه الجزر مسلمون محافظون عدا أقلية ضئيلة من الكريول في جزيرة مايوث اعتنقت الديانة المسيحية بتأثير المبشرين الفرنسيين وبتشجيع من الحكومة الفرنسية ٠ وتنتشر المساجد في جميع أنحاء الجزر ويزيد عددها على ٦٠٠ مسجد وهي تغص بالمصلين في أيام الجمع وشهر رمضان ٠ والحج مطمح رئيسي للاغنياء من السكان اذ يكسبهم احترام عامة الناس وثقتهم ، كما أن اتباع الطرق الصوفية شائع بينهم ، ولعل الطريقة الشاذلية هي التي تحظى بأكبر عدد من المريدين والقمريون يقدسون قبر محمد التوماني المدفون في جزيرة القمر الكبرى لانه أول من نشر الاسلام في هذه الجزر فيفدون لزيارة قبره والتبرك به ٠

ان الاسرة لدى القمريين تقوم من حيث المبدأ على نظام تعدد الزوجات ، وعلى والد الفتاة أن يهيىء لابنته بيتا أو كوخا حسب امكانياته المادية لسكنى الزوج فيه ، الذي من واجبه أن يكون عادلا بين زوجاته وأن يرعى أولاده ويعمل على اسعادهم ، كما أن عليه أن يوزع ثروته واملاكه على اولاده وازواجه قبل وفاته ، ولدى القمريين تقليد يسمونه الزواج الكبير يحرص كل مواطن على تحقيقه ليحسن من مركزه الاجتماعي ويكسب احترام الآخرين ٠ ويتم هذا الزواج بأن يقوم القادر عليه بتجديد عقد زواجه من امرأة على عصمته أو بالزواج من فتاة جديدة تنضم الى زوجاته الاخريات ٠ ولا بد من فترة استعداد قد تطول الى عشر سنوات أو أكثر بسبب ما يكلفه هذا الزواج من نفقات مادية باهظة، ، وهذا يتطلب مؤازرة جميع أقارب العريس وأبناء عشيرته ٠

تبدأ خطوات الزواج بأن يستشير الزوج العرافين فيمن يريد الزواج منها ، وهل سيكون ذلك في مصلحته في المستقبل ولسعادة اسرته وقبيلته ثم يرسل بعض الهدايا لاسرة العروس يعقبها زيارة مع ثلة من أقاربه لتقديم المهر لابيها ٠ ومن ثم يحدد يوم الزفاف الذي يكون في الغالب يوم جمعة ، وتبدأ الاحتفالات بمواكب طويلة يشارك فيها جميع أبناء القرية وتستمر ثلاثة أيام ، لايألوا خلالها الموسيقيون جهدا في اظهار قدراتهم الغنائية والموسيقية وتقام المآدب كل يوم وتنفق الاموال الطائلة للتعبير عن الكرم من ناحية وتأكيدا لملاءة العريس المادية ، وفي اليوم الثالث يخرج العريس من داره مع أقاربه وأصدقائه في موكب كبير متجهين نحو بيت الزوجية المقبل حيث تكون العروس وأمها بانتظاره ، ويتقدم الموكب شاب يحمل على رأسه صينية مكشوفة تحتوي على الحلي والمجوهرات والهدايا التي قدمها العريس لعروسه ٠

وما ان يصل الموكب الى بيت العروس حتى يأخذ أفراده بالانصراف تاركين العريس عند عروسه لوحدهما ولمدة تسعة أيام لا يحق للزوجة خلالها أن تغادر بيتها ولها أن تستقبل صديقاتها المباركات لها بالزفاف ، بينما لا يحق للزوج أنيظهر أمامهن وعليه أن يبقى مختبئا فيغرفة مجاورة ٠ وما ان تنقضي هذه الايام التسعة حتى تعود الحياة الى مجراها الطبيعي فتنصرف العروس الى عملها في البيت أو الحقل ، كما ينصرف العريس الى عمله السابق ٠

ان الزواج الكبير في نظر القمريين يعطي صاحبه امتيازات كثيرة لا تقل عن الامتيازات التي يحصل عليها الحاج الى بيت الله الحرام . فلصاحبه الحق في المشاركة في مجلس الاعيان ، الذي يبحث كل الامور الهامة المتعلقة بحياة سكان المدينة أو القرية ، كما باستطاعته أن يكسب ثقة التجار والممولين والشركات فيستدين منهم مبالغ طائلة يوظفها في أعماله الزراعية أو التجارية ، كما تتغير نظرة المواطنين اليه فتصبح كلها تجلة واحترام يشيدون بأفضاله ومآثره في مجالسهم الخاصة وفي أسواقهم هذا بالاضافة الى أن من حقه أن يكون ضمن المصلين في الصف الاول في المسجد ... الخ .

ان هذه الميزات التي حصل عليها سيكون لها تأثير مباشر على أقاربه وعشيرته ومن هنا جاء حرصهم على الاسهام بأموالهم لتحقيق هذا الزواج مؤملين الفائدة المادية والشرف والجاه من ورائه .

ان هذا النوع من الزواج لايزال معمولا به في معظم جزر القمر ، ولكنه أخذ يتلاشى بعض الشيء في عاصمة البلاد موروني ، كما أخذت ظاهرة تعدد الزوجات تجد بعض المعارضة والنقد في صفوف القمريين المثقفين .

أوضاع جزر القمر الاقتصادية :

تعتمد هذه الجزر في حياتها الاقتصادية على ما تصدره من خلاصة العطور حيث تزرع مساحات واسعة من النباتات العطرية مثل الفانيلا ، اللانج لانج ، القرنفل ، الياسمين ، الحبق .. الخ . وتملك الشركات الفرنسية جميع مصانع التقطير الموجودة في هذه الجزر ، كما تعتمد الجزر على بعض ما تنتجه من القرفة ، والكوبرا والموز والقهوة . ولما كانت قيمة الصادرات لا تفي بحاجتها لذا فانها تستفيد من الاموال التي يرسلها أبناؤها في الخارج الى ذويهم ويبلغ عدد هؤلاء المغتربين نحو خمسين الفا في جزيرة مدغشقر واربعين الفا في زنجبار ، هذا بالاضافة الى المساعدات المادية والعينية التي تأتيها من دول الجامعة العربية ومن منظمة الشعوب الناطقة باللغة الفرنسية .

لقد استغلت فرنسا الوضع الاقتصادي السيء وأخذت تمارس ضغوطا مختلفة بعد ان حصلت الجزر على استقلالها بغية الابقاء على الثقافة والمصالح الفرنسية ، فامتنعت مثلا عن تزويد البلاد بما تحتاج اليه من مدرسين في العام الدراسي ١٩٧٥ وبذا تعطلت الدراسة في المرحلة الاعدادية في ذلك العام ٠ مما ألجأ المسؤولين الى الاستعانة بمنظمة الشعوب الناطقة بالفرنسية التي أمدتهم في العام التالي ببعض المدرسين والذين تنقصهم الخبرة والكفاءة العلمية مشترطة أن تكون المعونة لمدة عام واحد ٠ وقد دفع ذلك بالمسؤولين للاستعانة بالجامعة العربية التي وعدتهم بتلبية طلبهم مؤملة أن يتبنى القمريون اللغة العربية كلغة رسمية للبلاد ، ولكن فرنسا هددت بأنها لن تعمل على حل مشكلة جزيرة مايوت التي لا تزال بحوزتها اذا ما تم الامر ٠ وكان من نتيجة ذلك أن أقر القمريون الاستمرار باعتبار اللغة الفرنسية كلغة أولى في التعليم وأن تأتي اللغة العربية كلغة أجنبية في المدارس ٠

والقمريون اجمالا متدينون يرسلون أطفالهم منذ سن الرابعة الى الكتاتيب التي تنتشر في جميع القرى وبأعداد كبيرة ، ويشرف عليها بعض المتدينين من الرجال أو النساء ، يجدون من واجبهم الدينيتعليم هؤلاء الاطفال قراءة القرآن وأمور دينهم والاحرف العربية ، وان كانوا هم انفسهم لا يفقهون معنى ما يقرأون واذا ما بلغ الطفل السابعة أو الثامنة من العمر أرسله ذووه الى المدرسة ان توفرت في منطقتهم ليبدأ تحصيله العلمي والتعليم في مختلف مراحله مجاني وتقوم الدولة بالانفاق على المدارس الداخلية التي يتألف معظم طلابها ممن لا تتوفر في قراهم مدارس تؤمن لهم التعليم ، وهذا ما يزيد في الاعباء المالية للدولة ٠

★ ★ ★

مُلوكُ أوغاريت مِنْ خِلال الوَثائِق
لمحةٌ عن تاريخ أوغاريت

د . علي أبو عساف

ان المادة المتوفرة لكتابة تاريخ مملكة اوجاريت الزاهرة قسمان : الآثار العمرانية والمصنوعات بمختلف أنواعها ، والآثار الكتابية .

اما الاولى فتستخدم للتعريف بالتاريخ الحضاري للمدينة ، والكتابية للتاريخ السياسي للمملكة . وبما ان الاخيرة تعود الى القرنين الرابع والثالث عشر ق.م ، فهي تلقي الضوء على تاريخ المدينة خلال هذين القرنين فقط . لذا فالمعول عليه في كتابة تاريخ المدينة قبل ذلك هي الآثار المادية وبعض المعلومات المستقاة من مصادر اجنبية كالحثية والمصرية .

وبما اننا لانرغب في كتابة تاريخ شامل لمملكة اوجاريت ، نكتفي باستنطاق الوثائق الكتابية التي بين ايدينا ، الاجنبية والمحلية ، في كتابة هذا الموجز .

ولا بد هنا من تقسيم تاريخ اوجاريت الى دورين :

١ ــ الدور الذي سبق القرنين الرابع والثالث عشر ق.م :

كانت اوجاريت على صلات وثيقة مع جيرانها فيما وراء البحار وفي الداخل . فقد اكتشفت فيها آثار مصرية من عصر الامبراطورية الوسطى (٢٠٥٢ ــ ١٦١٠ ق.م) أهمها منحوتات لزوجة الفرعون زيزتروس الثاني (١٨٩٧ ــ ١٨٧٩ ق.م) وللملك أمنمحت الثالث (١٨٤٠ ــ ١٧٩٢ ق.م) (١) . وان دلت هذه المكتشفات على شيء فانها تدل على قيام

علاقات صداقة بين حكام اوجاريت وحكام مصر وحاشيتهم . وقد ارسل المصريون هذه المنحوتات الى اوجاريت للتقرب منها والحصول على بركة اربابها ، والتمهيد لبسط النفوذ السياسي عليها . ولكن لاشيء يثبت وقوع هجوم مصري في تلك البقاع .



ناقرة الدف قطعة عاجية ، اسلوب مصري .

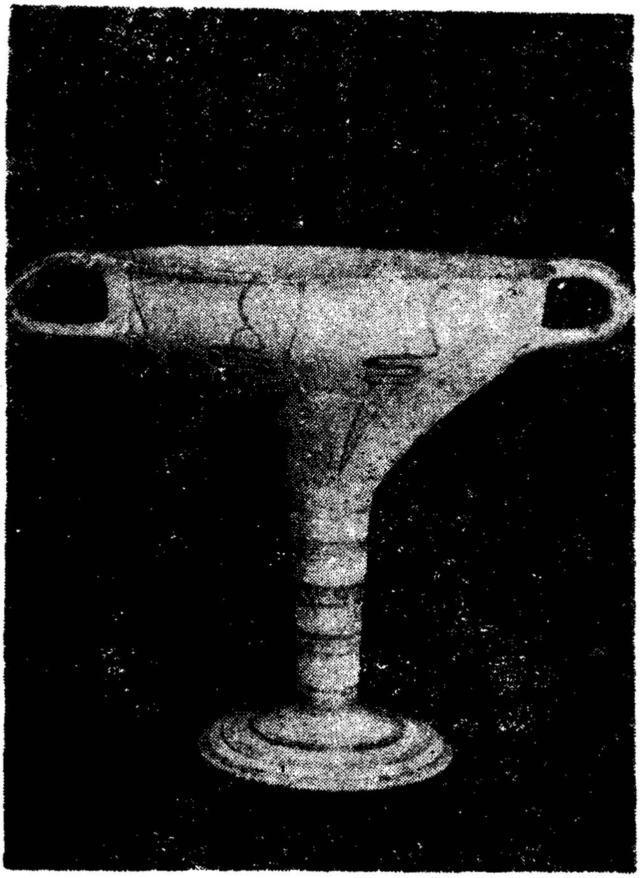
هذا ماكان من امر اوجاريت ومصر ، أما عن علاقة اوجاريت مع الدول الكنعانية في الداخل ، فلا تزال سرا مجهولا . وقد قدمت الينا محفوظات قصر ماري وثائق قليلة جدا ، تحوي معلومات بسيطة ، ولكنها ممتعة تعود الى النصف الاول من القرن الثامن عشر ق.م (٢) . ويستدل منها ان صلات تجارية وثيقة كانت قائمة بين اوجاريت من

جهــة وحلب وماري من جهة اخرى . ويبدو ان علاقة اوجاريت بحلب كانت اوثق من علاقاتها بماري . ونذكر في هــذا الصدد ان ملك يمحاض ــ التي كانت عاصمتها حلب ــ عمــورافي الاول قــد أعلم سمرليم ملــك ماري برغبة امير او شيخ اوجاريت في زيارة ماري لمشاهدة قصرهــا العظيم الذائع الصيت . ونستدل من هــذا ان حكام أوجاريت في القرن الثامن عشر لم يكونوا بعد قد لقبوا ملوكا ، كما انه لم يكن لديهــم قصور كأخوانهم في ماري ويمحاض . ولم تكشف التنقيبات الاثرية في أوجاريت عما يخالف هذا الاستنتاج .

ونحن وان كنا لانعرف اسم هــذا الامير ، فاننا نقرأ على ختم من عصر خلفه ، يسمى ختم السلالــة المالكة ، واستعمله ملوك اوجاريت جميعهم ، اسمي الملكين يقارو وابنه نقم هدد الذين حكما بصورة تقريبية خــلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر (٣) . والثابت من استعمال الختم الملكي من قبل ملــوك اوجاريت الذين حكموا بعد هذين الملكين ، انهما ، او بالاحــرى أن يقــارو هو مؤسس السلالة الحاكمة التي نعرفها .

لم تقتصر صــلات اوجاريت التجارية عبر البحار على مصر ، بــل شملت ايضا العالم الايجي وقبرص . وكانت الطرق التجارية البحرية بينهم خاليــة من المخاطر والمعوقات . اذ لم تكن هناك دول قوية علــى الشواطىء بين اوجاريت والعالم الايجي تهــدد او تعيق حركة التبــادل التجاري بينهم . ولا شك ان الجبل الاقرع شمالي اوجاريت كان بمثابة منارة للسفن المبحرة نحوها وخاصة قبرص .

وبعــد ازدياد نفوذ مدينة **الــلالخ** في سهل **العمــق** قبيل منتصف الالف الثانية ق.م وانتقال سركز السلطــة من حلب اليها ، نشأت في القصر الملكي بها دار محفوظــات حوت بضع وثائق تحدثنــا عن استيراد اللالخ لمــادة الصوف من اوجاريت (٤) . ويبدو انه بعد سقوط مــاري قــد توطدت علاقات اللالخ واوجاريت التجاريــة اكثر فأكثر . ولكننا لانعلم حجم المبادلات التجاريــة بينهما بدقة . وبحكم التجاور بــين الدولتين ، وتوسع كل منهما باتجاه الاخرى بداتا بتنظيم علاقاتهمــا على اسس محــددة مدعمة بوثائق واتفاقــات ، يقضي بعضهــا بتسليــم المجرمين والفارين والسارقين . ونذكر هنا برسالة من ملك اللالخ **نقميبا**



آنية من العالم الايجي تشهد على قوة العلاقة بين اوجاريت وهذا العالم .

الى عبيرا ملك اوجاريت يعلمه فيها ان احد الخدم قد فر من اللالخ ومعه ثلاثة خيول ، ومن المحتمل انه قصد اوجاريت . لذا يرجوه أن يأمر بالقبض عليه واعادته الى اللالخ (٥) .

لم تكن يمحاض القوة السياسية الوحيدة في الشمال التي كانت تتعامل معها أوجاريت ، فقد ظهرت على المسرح السياسي ، الدولة الميتانية الى الشرق من الفرات وحاولت بسط نفوذها على الاراضي الواقعة غربيه ، مثل حلب واللالخ وحتى أوجاريت . والواقع اننا لانعرف كنه العلاقات بين اوجاريت والميتانيين الحوريين على وجه الدقة . ولكن يبدو انها كانت عادية ولم تكن ثمة عداوة بينهم .

وبوصول السلالة الثامنة عشر (١٥٧٠ ـ ١٣٤٥ ق.م) الى الحكم في مصر تعزز النفوز المصري في بلاد الشام كلها ، وشد ملوكها الرحال الى بلاد الشام تصديا للحثيين والميتانيين لمنعهم من بسط نفوذهم وسيطرتهم الكاملتين عليها . وقد حرصوا على أن تكون اوجاريت لموقعها الستراتيجي الممتاز في صفهم ، واحتفظوا بحامية عسكرية فيها خلال عهد توت موسيس الثالث (١٥٠٢ ـ ١٤٤٨ ق.م) وامنوفس الثاني ١٤٤٨ ـ ١٤٢٢ ق.م(٦) .

٢ ـ اوجاريت في عصرها الذهبي :

يمتد العصر الذهبي لاوجاريت من ١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م تقريبا . وخلال هذين القرنين شهدت بلاد الشام صراعات داخلية سببتها أطماع الحثيين والميتانيين فيها ، ومحاولتهم بسط نفوذهم عليها أو على جزء منها . وتصدي ملوك مصر لهاتين القوتين الكبيرتين في الشمال ومحاولتهم منعهما من تحقيق اهدافهما . فانحاز اليهم بعض الحكام وعاداهم البعض الآخر .

ولابد من الاشارة هنا الى أن بلاد الشام قد تمتعت ، في النصف الاول من الالف الثانية ق.م ، بالاستقرار السياسي ـ على عكس ماجرى في النصف الثاني ـ فقامت فيها دول ودويلات كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر أوجاريت ، اللالخ ، قادش ، آمورو ، جبالا (جبيل) مجدو ، أوفه ، ... الخ . ولم تقم وحدة سياسية بين هذه الدول تجمع شملها ، فبقيت مجزاة ، فالوحدة السياسية هي القبيلة ، التي استقرت في بقعة معينة من بلاد الشام ، واتخذت في تلك البقعة مدينة ملائمة عاصمة لها . ولم تكن هذه الوحدات السياسية على درجة متساوية من القوة ، كما أنه لم يطل بها الزمن حتى سقطت في ايدي الدول القوية المجاورة .

وكان لهذا الوضع ، وحرمان بلاد الشام من حكومة مركزية قوية ، كما في بابل وحتّى ومصر ، أثر كبير في تطورها السياسي والحضاري ، كما سنرى من هذا العرض الموجز لتاريخ أوجاريت ، وأعمال ملوكها الذين اهتموا بالعمران وتنشيط التجارة والزراعة ومختلف أنواع الفنون والآداب ، فاطلقنا بحق على هذه الحقبة العصر الذهبي .

شهد العصر الذهبي الاوجاريتي عدة ملوك كان أولهم عمم ثتمر اي عم استمرى ، ويعني استمرى الشعب . والواقع أن اخبار هذا الملك لم تصل الينا من وثائق عصره ، بل من وثائق خلفه . وفي هذه الوثائق اشارات واضحة تدل على ان الملك عم ثتمر قد اقام علاقات ودية مع الحثيين والمصريين ، وكان على خلاف مع العموريين في الجنوب الذين استقروا في السهول الممتدة بين طرطوس شمالا وطرابلس جنوبا وكانت عاصمتهم سميرا على نهر الابرش .

خلف عم ثتمر على العرش ولده نقم ادد او نقم هدد الثاني قبيل منتصف القرن الرابع عشر ق.م ويعني اسمه قام هدد ، او قائم هدد ؛ أو قَيم هدد . ونحن نفضل التفسير الاخير ، ويقابله في العربية قايم الزمان .

وقد اكتشفت في دار المحفوظات الاوجاريتية الملكية وثائق كثيرة عن عصر هذا الملك ، سياسية واقتصادية وادبية . ويستدل منها انه عاصر الملك الحثي شوبي لليوما (١٣٨٠ ـ ١٣٤٦ ق.م) ، وكل من الفرعونيين امنوفس الرابع ١٣٧٧ ـ ١٣٥٨ ق.م و توت عنخ آمون ١٣٥٨ ـ ١٣٤٩ ق.م . واهم من ذلك كله انه عاصر الملك العموري القوي آزيرو الذي بسط نفوذه على ساحل بلاد الشام من مملكة جبالا (جبيل) في الجنوب الى حدود مملكة اوجاريت في الشمال ، وذلك في الربع الثاني من القرن الرابع عشر ق.م (٧) . وفي هذا الوقت كانت اوجاريت دولة تجارية ولم تكن دولة عسكرية كجارتها الجنوبية القوية العمورية . لذا كان أول عمل لنقم هدد هو التقرب من آزيرو ومصاهرة العموريين ، وبالتالي التوصل الى اتفاق معهم على عقد معاهدة كان فيها آزيرو الطرف الغالب ونقم هدد الطرف المغلوب . وقد تعهد آزيرو بنجدة اوجاريت في حال وقوع هجوم عليها وعلى دولة سيانو في سهل جبله . ومقابل ذلك دفعت اوجاريت لآزيرو خمسة آلاف مثقال فضة (٨) .

وكان الحثيون في الشمال يتحينون الفرص للتوسع نحو الجنوب في بلاد الشام . وادرك امراء اواسط بلاد الشام ، وهم حكام بلاد موكيش ونوخشي الممتدتين من سهل العمق في الشمال الى أراضي الوعر غربي حمص ، الخطر وسعوا لتكتيل وتجميع الحكام الآخرين للوقوف في وجه

الحثيين . ويبدو أن اوجاريت قد فضلت البقاء خارج دائرة الصراع ، فكسبت عداء موكيش ونوخشي ورضاء الحثيين . وتقديرا لهذا الموقف عرض شوبي لليوما على نقم هدد عقد معاهدة دفاعية بينهما ، يقوم الحثيون بموجبها بنجدة اوجاريت في حال تعرضها للهجوم (٩) . وبذلك ضمن الحثيون لانفسهم حق التدخل والتوسع في بلاد الشام . وعندما هاجمت موكيش ونوخشي اوجاريت تقدم الحثيون ، واحتلوا أراضي البلدين ، وكسبوا غنائم كثيرة لم يأخذوها الى حثي بل قدموها لنقم هدد ؟ ! .

ومن خلال المعاهدة والاتفاقات الثنائية التي تلتها ، والتي نظمت العلاقات بين اوجاريت والحثيين ، نسمع لاول مرة عن خط سير الحدود الشمالية الشرقية لاوجاريت ، والتي امتدت من ادلب الى الروج فجسر الشغور وبداما واردو والبدروسية فجبل الاقرع(١٠) . اما حدودها الشرقية والجنوبية الشرقية فلا نعرف عنها شيئا . وبالتأكيد لم تصل الى أفاميا التي كانت تابعة لنعيا . وفي الجنوب امتدت حدودها حتى منابع نهر السن .

حكم نقم هدد فترة طويلة من الزمن . وفي عهده الفت أساطير اوجاريت ، وكان مهتما بالادب والثقافة كاهتمامه بالسياسة كملك . وبعد موته خلفه ابنه ارخلبا الذي حكم حوالي السنتين فقط ، ولم يترك لنا سوى بضع وثائق . وان كانت فترة حكمه القصيرة هذه عادية ، الا انها دعتنا للتساؤل فيما اذا كان هذا الملك قد مات ، أم أنه اعتزل الحكم لسبب ما ؟ ، خاصة واننا نعلم بأنه لم يكن على علاقة طيبة وجيدة بالحثيين (١١) .

ومهما يكن الامر فقد اعتلى العرش بعد أرخلبا أخوه نقم عفا ، الذي ترك لنا وثائق هامة . وكان اعتلاؤه العرش في السنة التاسعة لحكم مورشيلي الثاني الحثي (١٣٤٥ ــ ١٣١٥ ق.م) وعاصر من الملوك الحثيين موفاتلي (١٣١٥ ــ ١٢٩٠ ق.م) ، مورشيلي الثالث (١٢٩٠ ــ ١٢٨٣) وختوشيلي الثالث (١٢٨٢ ــ ١٢٥٠ ق.م) ، وتوفي خلال السنوات الاخيرة لحكم ختوشيلي الثالث(١٢) .



الرب ايل
كبير مجمع الالهه
في اوجاريت

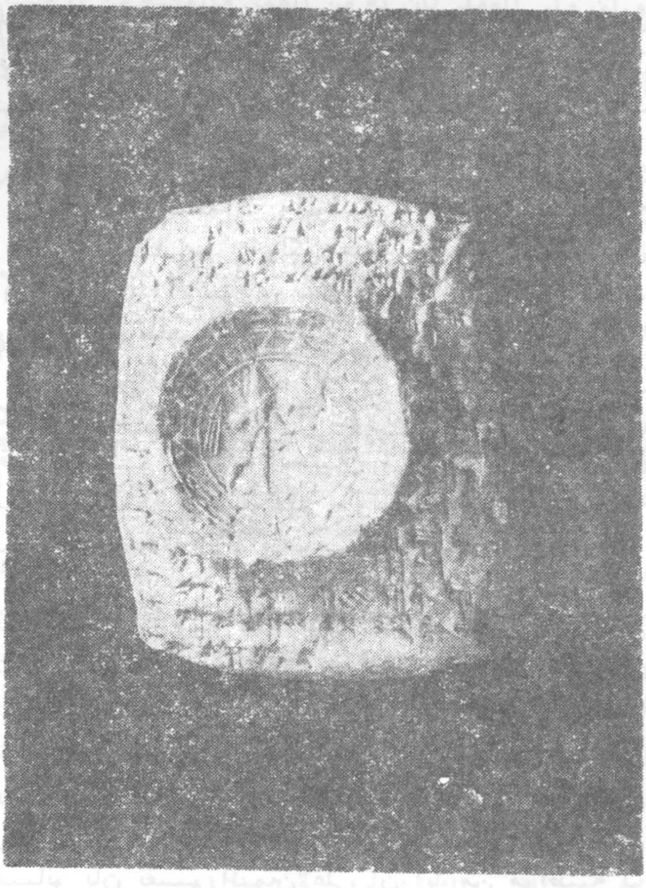
عقد نقم عفا معاهدة مع مورشيلي الثاني الحثي . ويبدو من هذه الواقعة أنه لم يلتزم بالمعاهدة التي أبرمها والده نقم هدد مع شوبي لليوما، مما دعا الملك الحثي مورشيلي لان يعتقله وينقله من اوجاريت الى عاصمة الحثيين خاتوشا . ثم اعاده الى عرشه بعد ان كبله بمعاهدة جديدة

قاسية ، أوجبت على اوجاريت دفع الجزية ، وتقديم المعونات العسكرية والمادية للحثيين ، والالتزام بعدم التعاون مع أعدائهم ، الى جانب تعهد ملك أوجاريت بالسفر سنويا الى بلاد حثي لتقديم الولاء لملكها .

ليس ماذكرته أعلاه هو النتيجةالوحيدة لتمرد نقم عفا على الحثيين،

بل توجد نتائج أقسى وأمر . فقد قلصوا حدود اوجاريت الجنوبية ، وأخرجوا دولتي سيانو واشناتو الواقعتين بين نهن الروس والسن ، من أراضي اوجاريت وربطوها بنائب الملك الحثي الذي اصبح المشرف الوحيد على شؤون بلاد الشام الشمالية (١٣) .

ورغم هذا كله قدم نقم عفا العون العسكري للحثيين في معركة قادش ، واحتفظ مع ذلك بعلاقات تجارية مع مصر .



رقيم انيتشوب
نموذج من الرسائل المتبادلة بين الحثيين والاوجاريتيين .
رسالة انيتشوب الى عمثتمر الثاني .

تربع على عرش اوجاريت بعد وفاة نقم عفا عم ثتمر الثاني (انظر شرح الاسم بالنسبة الى عم ثتمر الاول) . وفي عهده وقعت أحداث

سياسية هامة نقلت الينا بواسطة الرقم الكثيرة التي دونت عليها رسائل وقوانين ومعاهدات .

اعتلى هذا الملك العرش وهو صغير نسبيا ، ولكنه كان متزوجا بابنة الملك العموري بن تشينا . وعاصر الملك الحثي ختوشيلي الثالث (١٢٨٢ ـ ١٢٥٠ ق.م) خلال اواخر سني حكمه ، ويبدو انه توفي خلال حكم تودخليا الرابع (١٢٥٠ ـ ١٢٢٠ ق.م) ، من كل هذا يبدو أن هذا الملك قد حكم خلال الربعين الثالث والثاني من القرن الثالث عشر ق.م . وساد السلام ربوع بلاد الشام خلال هذه الفترة بعد أن قررت الدولتان المصرية والحثية ، وبعد معركة قادش الشهيرة ، وقف جميع الاعمال الحربية بينهما والاعتراف بالوضع الراهن الذي كان قائما آنذاك في بلاد الشام .

لقد حافظ عم ثتمر على المعاهدات والمواثيق التي ابرمها أسلافه مع الحثيين ، وظل تابعا مخلصا لهم . ولكن عندما وقع الصدام بين الحثيين والاشوريين في عهد الملك الاشوري سلما نصر الاول (١٢٧٣ ـ ١٢٤٤ ق.م) ، تمنع عن تقديم العون العسكري للحثيين ، وقدم عونا ماديا بدلا عن ذلك . ومن المحتمل أن يكون الدافع لهذا الموقف التقدير الجيد للموقف ، وتكهن عم ثتمر بأن كفة الآشوريين لابد راجحة في النهاية . وبنفس الوقت فهو لم يغضب الحثيين ، اذ قدم لهم العون المادي الذي لايقل اهمية عن المقاتلة في صفوفهم . والجدير بالذكر أن عونه المادي قد زاد عن المبلغ الذي حددته الاتفاقات بينهم .

أما بالنسبة للسياسة الخارجية فقد تولى الملوك الحثيين الفصل في النزاعات التي كانت تنشب بين أوجاريت وجاراتها ، وكلهم خاضعون بشكل أو بآخر للنفوذ الحثي . وقد بينت لنا الوثائق ان نزاعات عدة وخلافات كثيرة نشبت بين أوجاريت وجارتها الجنوبية سيانو . ومن هذه الخلافات مثلا ان مواطنين من دولة سيانو اعتدوا على مواطنين من دولة اوجاريت . وقضى في هذا النزاع نائب الملك الحثي المقيم في كركميش وأمر ملك سيانو بأن يقسم اليمين على أن أياً من مواطنيه لم يقدم على مثل هذا العمل اذا لم يظهر الفاعل(١٤) .

قلنا ان عم ثتمر قد صاهر الملك العموري بن تشينا . أي تزوج من

ابنته ، ولكن مالبث أن طلقها ، لانها ارتكبت خطيئة لانعرف نوعها . وقد أدى هذا الطلاق الى تعكير صفو العلاقات بين أوجاريت وعمورو ، وشكت الدولتان امرهما الى الملك الحثي بالذات ، وليس لنائبه في كركميش ، لان الامر خطير . لقد اوعز هذا الملك بتثبيت الطلاق ، وامر أن تغادر المطلقة اراضي أوجاريت مصطحبة معها كل الهدايا والجهاز التي أحضرتها معها من عمورو وقت الزفاف . والممتع في هذه القضية هي الكيفية التي حلت بها قضية الاولاد ، وخاصة مشكلة الابن الاكبر ولي العهد اترشروما . يبدو أن ولي العهد كان له من العمر مايمكنه من الاختيار ، لذا وضع أمام اختيارين : اما أن يلحق بأمه ويتنازل عن ولاية العهد في الحاضر والمستقبل او ان يترك امه ويبقى في اوجاريت فيحتفظ بولاية العهد . وفي هذه الحالة لايحق له بعد وفاة والده استدعاء أمه وتنصيبها من جديد والدة الملك او الملكة الام . واذا فعل عزله الملك الحثي . والطريف هنا انه اختار الشرط الاول(١٥) .

ليست هذه هي المشكلة الداخلية الوحيدة التي يحلها الملك الحثي ، فغيرها من المشاكل كثير . ونضرب هنا مثالا عليها . لقد تدخل الملك الحثي تودخليا الرابع (١٢٥٠ ـــ ١٢٢٠ ق.م) في حل النزاع الذي نشب بين عم ثتمر من جهة واخويه خشم شروم واراد شروم ولدي المدعوة (اخت ملكو) العمورية . وان كنا لانعرف فيما اذا كانت هذه هي أم عم ثتمرام لا، فاننا نرجح من وصف خشم شروم وآراد شروم بأنهما ولدا (أخت ملكو) ، انها لم تكن امه . والا فلا حاجة لتعريفهما بأنهما ولدا فلانة . لقد حاول الاخوان ازعاج عم ثتمر وعزله عن العرش لسبب نجهله ، ولكننا نفترض بأن له علاقة بطلاق زوجة عم ثتمر العمورية وهي من اخوالهم .وفي هذا النزاع قضى الملك الحثي ، وفي هذه القضية العائلية البحتة ، بأمر الاخوين بأن يرحلا عن اوجاريت الى قبرص ، ويأخذا حصتهما من الميراث نقداً ، ولا يعودا البته الى اوجاريت ، ويتعهدا بذلك .

تسلم الحكم بعد وفاة عم ثتمر ولده ابي رانو ، الذي لم يترك لنا سوى وثائق قليلة جدا ، والذي لم يحكم سوى عدة سنوات في الربع الثالث من القرن الثالث عشر ق.م(١٦) .

يبدو ان ابي رانو لم يكن كاسلافه ليخضع للحثيين ، ويتمسك بالمعاهدات والمواثيق التي كبلوا بها اوجاريت . ولعل الظروف التي سادت

المنطقة آنذاك ، مثل تعاظم قوة الاشوريين ، وظهور خطر شعوب البحر ، قد ساعداه على ذلك . وعلى اية حال فانه لم يقم بالزيارة المطلوبة الى عاصمة الحثيين ليقدم الولاء والطاعة للكهم حتى يعترفوا به ملكا على بلاده . ولهذا السبب كتب اليه الامير الحثي فخولوي معاتبا ، لائما اياه لعدم احترامه للمواثيق والمعاهدات ولعدم قيامه بالزيارة المطلوبة .

لاندري بعد هذا العتاب واللوم ، فيما اذا كان ابي رانو قد زار ختوشا عاصمة الحثيين . وعلى كل حال فقد استمر على موقفه وتنصله من تنفيذ التزامات أوجاريت حيال الحثيين ، كما نقرأ في رسالة وجهها نائب الملك الحثي المقيم في كركميش الى ابي رانو معاتبا اياه على تقاعسه في نجدة الحثيين عسكريا . ومن نظرة متفحصة للاحداث التي كانت جارية في المنطقة آنذاك ، يبدو أن النجدة التي كانت مرغوبة من الحثيين هي لصد الآشوريين الذين أخذوا يتوسعون غربا .

رغم هذه المواقف التي اتخذها ابي رانو ، نرى أن نائب الملك الحثي المقيم في كركميش لايزال يتدخل في رسم حدود دولة اوجاريت ، وخاصة الجنوبية، عندما ينشب الخلاف، ويتدخل في حل النزاعات الاخرى أيضا . ولا ندري فيما اذا كان هذا التدخل هو وساطة عادية بين دول كانت تحت الوصاية الحثية ؟ ! أم أنه يدخل ضمن اختصاصات الحثيين في حل النزاعات بين هذه الدول ؟ ! .

بعد وفاة ابي رانو خلفه على العرش نقم هدد الثالث ، الذي كان حكمه قصيرا . ولم يترك لنا وثائق هامة سوى عدة وثائق تتعلق بمعالجة بعض الامور القانونية من قبل ملك كركميش .

بعد نقم هدد وصل الى العرش عمورافي ، الذي كان آخر ملك حكم في اوجاريت عند نهاية القرن الثالث عشر ق.م ، حيث غزت شعوب البحر اوجاريت وأحرقوها . والدليل المادي على أن هذا الملك قد شهد نهاية المملكة وخراب المدينة هو العثور على رقم طينية خاصة به في الموقد الذي كانت تشوى به ، ولم تستخرج لان الكارثة كانت قد وقعت(١٧) .

وقبل وقوع الكارثة أرسل الملك الحثي ، الذي تعرضت بلاده هو الاخر للغزو ، بطلب النجدة العسكرية والمعونات المادية من اوجاريت ، فحصل عليها ، ولكنها لم تجد نفعا ، فالغزو كان أكبر من أن يقاوم .

اذ تعرضت سواحل بلاد الشام جميعها للغزو ، ولم تقف اوجاريت مكتوفة الايدي حياله . فقاومته ودمرت انساق الغزو الاولى ، واحرقت سفنها. وطلبت كذلك من قبرص اعلامها فيما اذا كانت هناك سفن أخرى مبحرة نحوها . لكن يبدو أن الغزو والغزاة لايقاومون من أية دولة من دول بلاد الشام منفردة ، فوقعت الكارثة ، وسقطت أوجاريت ، واثبتت التنقيبات الاثرية أن المدينة قد احرقت وفر منها سكانها الى الابد .

ملاحظة : آثرنا كتابة اسم (Ugarit, Ougarit) بحرف الجيم (اوجاريت) . وذلك لان اهل المدينة كتبوا اسم مدينتهم بهذا الحرف .

الحواشي :

١ — **Ugaritical** (1939) 20 ff.

٢ — G. Dossin, **Ugaritica 1** (1930) 16, Fig. 10

٣ — **Ugaritica III** (1956) 66ff. Fig 22

٤ — H. klengel, Geschichte **Syriens I m2. Jabrts.** Teil23, s. 334

٥ — J. Naugayrol **PRU IV,** 28.

٦ — انظر رقم ٤ ص ٣٣٦ .

٧ — انظر رقم ٤ ص ٣٤٨ .

٨ — انظر رقم ٤ ص ٣٤٩ .

٩ — انظر رقم ٤ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

١٠ — J. Nougayrol, **PRU IV,** 15 Ugaritica

١١ — انظر رقم ٤ ص ٣٥٨ .

١٢ — انظر رقم ٤ ص ٣٥٩ — ٣٦١ .

١٣ — انظر رقم ٤ ص ٣٦٤ — ٣٧٣ .

١٤ — انظر رقم ٤ ص ٣٨١ .

١٥ — J. Nougayrol, **PRU IV 125.**

١٦ — انظر رقم ٤ ص ٣٩١ — ٣٩٦ .

١٧ — انظر رقم ٤ ص ٤٠٢ — ٤٠٧ .